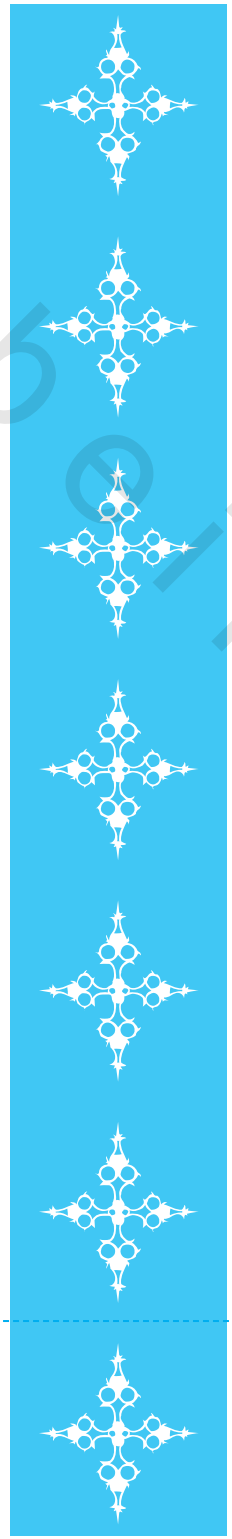

الجلسة الثانية :

التدبُّر عند المفسرين ١

الورقة الأولى:

مفهوم تدبر القرآن

د. مساعد بن سليمان الطيار

الورقة الثانية:

تحرير معنى التدبُّر عند المفسرين

د. فهد بن مبارك الوهبي

obeikandl.com

الورقة الأولى:

د. مساعيد بن سليمان الطيار

مفهوم تدبر القرآن

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أنفس ما تُصرف فيه الأوقات كتابُ الله تعالى، وإني -إذ أشارك في هذا الملتقى بهذه الورقة- لأرجو من الله التوفيق والسداد في القول والعمل، وأقول -مستعينًا بالله-:

* التدبر في اللغة:

تدلُّ مادة (دَبَرَ) على آخرِ الشَّيءِ.

والتَّدبُّرُ: النَّظرُ في أدبارِ الشَّيءِ، والتفكيرُ في عاقبتِهِ.

وقد استُعمِلَ في كلِّ تأمُّلٍ يقعُ من الإنسانِ في حقيقةِ الشَّيءِ أو أجزائه أو سوابقِهِ أو لواحقِهِ أو أعقابِهِ [1].

وجاءَ على صيغةِ التَّفعُّلِ، ليدلَّ على تكلُّفِ الفعلِ، وحصولِه بعد جُهْدٍ، والتَّدبُّرُ: حصولِ النَّظرِ في الأمرِ المُتَدَبَّرِ مرَّةً بعد مرَّةٍ.

(١) ينظر: روح المعاني (٥: ٩٢).

obeikandl.com

* آيات التدبر في القرآن:

وقد جاءَ الأمرُ بتدبُّرِ القرآنِ في أربعةِ مواضعَ من القرآنِ، والعجيبُ أنَّ آيَتَين نزلَتْ في سياقِ المنافقين، وهما قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

وجاءت آيتانِ في سياقِ الكفَّارِ، وهما قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وتحتملُ آيةُ سورةِ (ص) أن يكون المؤمنونَ هم الموجه لهم بالخطاب بالأمر بالتَّدبُّرِ، ويشهدُ لذلك قراءةُ مَن قرأ: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ بالتَّاء[1]، بمعنى: لتتدبَّره أنت يا محمد واتباعُك[2].

وليس نزولُ الآيةِ في سياقِ غيرِ المؤمنينَ يعني أنَّ المؤمنينَ لا يُطلبُ منهم التَّدبُّرُ، بل هم مأمورونَ به، وداخلونَ في الخطابِ من باب أولى؛ لأنَّهم أهلُ الانتفاعِ بتدبُّرِ القرآنِ، وإنَّما المرادُ هنا بيانُ مَن نزلت بشأنه الآياتُ، دون بيان صحَّةِ دخولِ المؤمنينَ في الخطابِ، والله أعلمُ.

والآياتُ الآمرةُ بالتَّدبُّرِ منها ما جاءَ على شيءٍ مخصوصٍ؛ كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النِّساء: ٨٢].

---

(١) هي قراءة أبي جعفر المدني من العشرة، وقد نُسِبَتْ إلى عاصم، ينظر: تفسير الطبري، ط: الحلبي (٢٣: ١٥٣)، والمحرر الوجيز، ط: قطر (١٢: ٤٥٢ ٤٥٣)، والنَّشر في القراءات العشر (٢: ٣٦١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ط: الحلبي (٢٣: ١٥٣).

ومنها ما جاءَ مطلقًا بالتَّدبُّرِ العامِّ؛ كقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وتوجيه التدبر للمنافقين والكافرين يدلُّ على أن التدبر المطلوب منهم مما يمكنهم فعله، لكنه ليس شاملاً لكل ما يدخل في مفهوم التدبر.

فقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النِّساء: ٨٢]، يدلُّ على أن المنافقين لو أعملوا ذهنهم في تدبر القرآن لوصلوا إلى نتيجة أنه من عند الله، ولزال عنهم ذلك القلق والاضطراب الناتج من النفاق.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] يدلُّ على أن سبب عدم حصول التدبر هو تلك الأقفال التي في القلب.

وأما قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾؛ فإن السياق يدل على أن الكفار لم يُعطوا أنفسهم فرصة النظر في القرآن لتبيُّن حقيقته، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٦-٦٨].

وأما قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩].

وفي القراءة الأخرى (لتدبروا)؛ فإن الخطاب للكافرين بدلالة أن السورة في أولها وآخرها تناقش الكفار ودعواهم في القرآن والبعث، ففي أول السورة قسم بالقرآن، قال تعالى: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص:١]، وقال: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىٓ ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾ [ص:٨].

ثم جاءت هذه الآيات ضمن ثلاث آيات فاصلة بين خبر داود عليه السلام، وخبر

ابنه سليمان عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٧-٢٩].

ثم توالت قصص الأنبياء، ثم خبر الجنة وأهلها، وخبر النار وتخاصم أهلها، ثم عاد الحديث عن القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص:٦٧-٧٠]، ثم ذكر عداوة إبليس لأبينا آدم وذريته، ثم خُتمت السورة بذكر القرآن، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص:٨٦-٨٨].

وأيًّا ما كان الأمر، فإن توجيه الأمر بالتدبر لهؤلاء القوم يدل على أنهم يمكنهم التدبر، وأن هذا القرآن -من حيث الجملة- معلوم المعنى عندهم.

*** مستويات التدبر المرتبطة بالمعنى:**

معاني القرآن تنقسم إلى قسمين:

الأول: معاني ظاهرة يدركها كل قارئ للقرآن؛ لذا فهي لا تحتاج إلى تبيين.

الثاني: معاني غير ظاهرة لبعض القارئين، وهم يحتاجون فيها إلى تبيين.

ويمكن أن تُجعل للتدبر مستويات مرتبطة بإدراك المعنى:

المستوى الأول: أن يكونَ التَّدبُّرُ لمعرفةِ المعنى المرادِ بالآيةِ، ويقع هذا في حالين:

الأولى: حال خفاء المعنى.

الثانية: حال اختلاف المفسرين في المعنى، والرغبة في الوصول إلى الرأي الأولى

أو الرأي الصواب فيه.

وفي هذين الحالين يكون المعنى -قبل معرفته- من المتشابه النسبي[1]، الذي يقع فيه الاشتباه عند الشخص بسبب إحدى الحالتين السابقتين، فإذا عرف المعنى زال هذا التشابه النسبي، وصار من المعلوم.

وأمثلة هذا القسم كثيرةٌ، منها ما يقعُ من بحثِ آيةٍ مشكلةٍ، ومنها نقاشاتُ المفسِّرين التي يظهرُ فيها ترجيحُهم لوجهٍ من وجوهِ التَّفسيرِ، وغيرَها مما يحتاجُ إلى اختيارٍ من أجلِ بيانِ الراجح من الأقوال.

وإذا تأملت طريقة الوصول إلى المعنى في هذين الحالين وجدتها تحتاج إلى إعمال العقل والذهن، وهذا مما يشترك فيه التفسير والتدبر.

المستوى الثَّاني: أن تكونَ الآيةُ ظاهرةَ المعنى لا تحتاجُ إلى تفسيرٍ، أو تكونَ قد تبيَّن المعنى الصحيحُ لها للمتدبِّرِ -أي: بعد تفسيرِها- فيتدبَّرُ ما تحتويه من وجوه الاستنباطاتِ والفوائد، وهو تدبُّرٌ لاستخراجِ الحِكَمِ والأحكامِ والآدابِ وغيرِها مما يستنبطُه المستنبطُ، وهذا يعني أنَّ الاستنباطات نتيجةٌ للتَّدبُّرِ.

تتمة وتنبيه ومثال:

١- إن الأصل في التدبر أن يقع في المعلوم، أما ما استأثر الله بعلمه -وهو المتشابه الكلي[2]- فلا يقع فيه تدبر لاستنباط معنى أو فائدة علمية؛ لأن المتشابه الكلي لا يخرج عن نوعين:

(١) المتشابه النسبي: ما يخفى على قوم، ويعلمه آخرون، وكل ما خفي عليك فإنه بالنسبة لك متشابه نسبي، وإذا علمته كان مُحكمًا؛ أي: معلومًا.

(٢) المتشابه الكلي يقابل المتشابه النسبي، وهو: ما يخفى على كل الناس، فهم سواءٌ فيه، وهو يشتمل على أمرين: حقائق المغيبات (أي: كيفياتها)، وأوقات وقوع هذه المغيبات.

الأول: كيفيات المغيبات، وهذه لا يقع فيها تدبر إلا بأن يؤمن بها المسلم كما جاءت عن الله تعالى.

الثاني: وقت وقوع المغيبات، وهذه لا يقع فيها التدبر كذلك؛ لأن علم ذلك مختص بالله تعالى.

وهذان النوعان لا يقع فيهما التدبر إلا من جهة بيان الحكمة فيهما، أما من جهة الكيفية والوقت فلا يقع تدبر.

وليس يعني هذا أن أمور الاعتقاد لا يقع فيها تدبر، بل ما كان منها في مجال المعلوم، فإنه يقع فيها التدبر كسائر آيات القرآن، سوى ما ذكرته من كيفيات المغيبات وأوقاتها التي قد يقع التدبر فيها في النظر في بعض حِكَم الله فيها.

ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]؛ فالدابة من حيث المعنى معلومة، لكنها من حيث كيفيتها ووقت خروجها مجهولة، وما يمكن أن يقع فيه التدبر هو المعنى، والحكمة من خروج هذه الدابة، أما كيفيتها ووقت خروجها؛ فليس مناطًا للتدبر.

٢- إن إدراك معاني القرآن في مقام الممكن، وليست في مقام المحال، لذا لا يوجد في القرآن كلمة لا يُعرف لها معنى، فالتدبر -إذا لم يكن لمعرفة المعاني- يكون بعد معرفة المعاني وإدراكها، وقد نبَّه الطبري (ت: ٣١٠) على هذا المعنى؛ فقال: «وفي حَثِّ الله عز وجل عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٧-٢٨]، وما أشبه ذلك من آي

القرآن، التي أمر الله عبادَه وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتِّعاظ بمواعظه- ما يدلُّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: «اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام»، إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به.

فأما قبلَ ذلك؛ فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه، لو أنشد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكم: «اعتبر بما فيها من الأمثال، واذَّكر بما فيها من المواعظ»، إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم.

فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق؛ فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبَر، بل سواء أمرها بذلك وأمر بعض البهائم به، إلا بعدَ العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها.

فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: «اعتبرْ بها» إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا؛ وإلا بمعنى الأمر -لمن كان بذلك منه جاهلاً- أَنْ يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبَّره بعدُ، ويتعظ بحِكَمه وصُنوف عِبَره.

فإذْ كان ذلك كذلك -وكان الله جل ثناؤه قد أمر عباده بتدبُّره وحثهم على الاعتبار بأمثاله-؛ كان معلومًا أنه لم يأمر بذلك مَن كان بما يدُلُّ عليه آيُه جاهلاً.

وإذْ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهُمْ بما يدلهم عليه عالمون؛ صحَّ أنهم -تأويل ما

لم يُحجَبْ عنهم علمه من آيه الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قد قدَّمنا صفتَه آنفًا- عارفون.

وإذْ صَحَّ ذلك؛ فَسَدَ قول مَن أنكر تفسيرَ المفسرين -من كتاب الله وتنزيلِه- ما لم يحجب عن خلقه تأويله»[1].

٣- مثال على التدبر:

ومن أمثلةِ هذا المستوى من التَّدبُّرِ، ما ذكره ابن القيِّم (ت: ٧٥١) في كتابه «زاد المهاجر» من تفسير قصَّةِ إبراهيم عليه السلام في سورة الذَّارياتِ، قال: «فصل في: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤].

فإن قلتَ: إنَّك قد أشَرْتَ إلى مقامٍ عظيمٍ، فافتحْ لي بابَه واكشفْ لي حجابَه، وكيف تَدَبُّرُ القرآنِ وتَفَهُّمُهُ والإشرافُ على عجائبه وكنوزه؟! وهذه تفاسيرُ الأئمَّةِ بأيدينا، فهل في البيانِ غيرُ ما ذكروه؟

قلتُ: سأضرب لك أمثالاً تَحْتَذِي عليها، وتجعلها إمَامًا لك في هذا المقصدِ.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠].

فعهدي بكَ إذا قرأتَ هذه الآية، وتطلَّعتَ إلى معناها، وتدبَّرتها، فإنَّما تَطْلُعُ منها على أنَّ الملائكةَ أتَوا إبراهيمَ في صورةِ الأضيافِ يأكلونَ ويشربون، وبشَّرُوه بغلامٍ

(١) تفسير الطبري.

عليم، وإنَّما امرأتُه عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة: أن اللهَ قال ذلك، ولم يتجاوزْ تَدَبُّرُكَ غير ذلك.

فاسمعِ الآن بعضَ ما في هذه الآيات من أنواعِ الأسرارِ، وكم قد تضمَّنت من الثَّنَاءِ على إبراهيم.

وكيف جمعتِ الضِّيافةَ وحقوقَها، وما تضمَّنتْ منَ الرَّدِّ على أهلِ الباطلِ من الفلاسفةِ والمعطِّلة.

وكيف تضمَّنتْ علمًا عظيمًا من أعلام النُّبوَّةِ.

وكيف تضمَّنتْ جميعَ صفاتِ الكمالِ التي رَدَّهَا إلى العلم والحكمة.

وكيف أشارت إلى دليلِ إمكانِ المعادِ بألطفِ إشارة وأوضحِها، ثُمَّ أفصحتْ وقوعَه.

وكيف تضمَّنتْ الإخبار عن عدلِ الرَّبِّ وانتقامه من الأمم المكذِّبة، وتضمَّنتْ ذِكْرَ الإسلام والإيمانِ والفرقِ بينهما، وتضمَّنتْ بقاءَ آياتِ الرَّبِّ الدَّالَّةِ على توحيده وصدقِ رُسُلِه وعلى اليوم الآخرِ، وتضمَّنتْ أنَّه لا ينتفعُ بهذا كله إلاَّ من في قلبه خوفٌ من عذابِ الآخرةِ، وهم المؤمنون بها، وأمَّا من لا يخافُ الآخرةِ ولا يؤمنُ بها، فلا ينتفعُ بتلك الآياتِ؛ فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملةِ...»[1].

ثُمَّ بدأ يسردُ فوائدَ واستنباطاتٍ من هذه الآيات، ولولا طولُها، لذكرتُها.

* مفهوم التدبر:

من خلال ما سبق طرحه يمكن القول بأن التدبر هو: إعمال الذهن بالنظر في آيات القرآن؛ للوصول إلى معانيها، ثم النظر إلى ما فيها من الإحكام والمعارف

(١) الرسالة التبوكية، لابن القيِّم (ص: ٦٣-٦٨).

والعلوم والعمل.

فإعمال الذهن بالنظر في آيات القرآن، وهو معنى التدبر.

وهذا الإعمال لغايات لا يوصل إليها إلا بالتدبر، وهي:

١- الوصول إلى المعنى إذا كان يحتاج إلى تطلُّبٍ للوصول إليه.

٢- الوصول إلى الإحكام والإتقان الذي في القرآن من جميع جوانبه؛ الذي يدل على أنه لو كان من عند غير الله لما كان فيه هذا الإحكام، بل لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

٣- الوصول إلى ما فيه من المعارف والعلوم، وهي جملة المسائل والمعلومات المستنبطة من القرآن.

٤- الوصول إلى العمل، إما بتأثر القلب والجوارح، وإما بعمل الأركان بالامتثال والتطبيق.

*** علاقة التدبر ببعض الأحوال المرتبطة بالتعامل مع القرآن:**

إن المتأمل في أحوال تعامل المسلم مع القرآن يمكنه أن يقسمها إلى خمسة أقسام:

الأول: حال القراءة:

والقراءة المجردة حركة لسانية سواءً أكانت من المحفوظ أو من المكتوب، وقد تكون تذكُّرية إذا كانت القراءة عن ظهر قلب، وقد تكون بصرية فقط إذا كانت تعتمد على النظر في المكتوب دون نطق اللسان.

والقراءة -بأنواعها هذه- هي الوسيلة الأولى للتدبر؛ لأن التدبر يكون من خلال المتلوِّ المقروء من الصدور، أو من خلال المكتوب من الآيات في السطور.

الثاني: حال إرادة فهم المعنى (التفسير):

التفسير: بيان معاني القرآن، فإذا بانت له هذه المعاني، فإنه قد أتمَّ مرحلة فهم المعنى.

وفي هذه الحال يُعمل المسلم عقله في تفهم المعاني، لذا فهي مرحلة عقلية يحتاج فيها المسلم إلى اجتهاد في بعض المواطن للوصول إلى المعنى المراد؛ إما بسبب خفاء المعنى، وإما بسبب اختلاف المفسرين، فيحتاج في كلا الحالين إلى إعمال العقل للوصول إلى المعنى.

وهذه الحال تشترك مع التدبر في كونها عملية عقلية، بل هي أحد مجالات التدبر؛ لأنه -كما سبق- لا يمكن أن يتدبر ما لا يفهم معناه، واجتهاده في تفهُّم المعنى نوع من التدبر.

أما ما يدركه -مما لا يخفى عليه-؛ فذلك مما لا يحتاج إلى إعمال العقل للوصول إلى المعنى؛ لأن المعنى قد حصل وانتهى؛ لذا لا يدخل ما كان بهذه الصورة في التدبر؛ لعدم حصول التكلف في الوصول إلى المعنى. (تربط بالسابق في الكيفيات والوقت).

الثالث: حال الاستنباط:

تدورُ مادَّةُ (نَبَطَ) على أصلٍ واحدٍ، وهو استخراجُ شيءٍ[1]، و(الألف والسين والتاء) في (استنبط) تدلُّ على تطلُّبِ الشيءِ لأجلِ حصولِه، وكأنَّ فيها معنى التَّكلُّفِ في إعمالِ العقلِ الذي يحتاجُه المستنبطُ حال الاستنباطِ، واللهُ أعلمُ.

قال الطَّبريُّ (ت: ٣١٠): «وكلُّ مستخرجٍ شيئًا كان مستترًا عن العيون أو

(١) ينظر: مقاييس اللُّغة (٥: ٣٨١)، والعباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني، تحقيق: محمد حسين آل ياسين (حرف الطاء: ٢٠٨).

عن معارف القلوبِ؛ فهو له مستنبطٌ، يقال: استنبطتُ الرَّكِيَّة: إذا استخرجتَ ماءها»[1].

وقال الصَّغانيُّ: «وكلُّ شيءٍ أظهرته بعد خفائه: فقد انبطتَه واستنبطتَه. وقوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣]؛ أي: يستخرجونه.

ويقال: استنبط الفقيه: إذا استخرج الفِقهَ الباطنَ بفَهْمِه واجتهادِه»[2].

الاستنباط بالاصطلاح:

والمراد بالاستنباط في الاصطلاح: استخراج الأحكام الخفية والفوائد العلمية من النصوص الشرعية اعتمادًا على القريحة الذهنية.

والاستنباط عملية عقلية، تعتمد على قدرة المجتهد في استخراج الفوائد المترتبة على النص الشرعي.

الأصل في الاستنباط أن يكون لما خَفِيَ ودقَّ ولطُف؛ فاحتاج إخراجه وبيانه إلى جهد وتكلُّف لا يستطيعه أي واحد من الناس، وقد أشار قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٨٣]، ولا يكون الاستنباط إلا بتدبر المعنى المستنبَط منه، للوصول إلى جملة من الاستنباطات، لذا فإن الاستنباط لا يكون إلا بعد فهم المعنى (التفسير)، وهذا يعني أن المستنبط يمرُّ بثلاث مراحل: (فهم المعنى)، ثم (تدبر المعنى)، ثم حصول أثر من آثار هذا التدبر، وهو (الاستنباط).

---

(١) تفسير الطبري، تحقيق: شاكر (٨: ٥٧١).

(٢) العباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني، تحقيق: محمد حسين آل ياسين (حرف الطاء: ٢٠٧).

وقد يكون هذا الاستنباط قريب المأخذ، وقد يكون بعيد المأخذ لا يدركه كثير من المتدبرين، وهذا الاستنباط الدقيق -الذي لا يدركه كثيرون- هو مما يتميز به العلماء الراسخون في العلم.

الرابع: حال التأثر:

إن التأثر بالقرآن حالة وجدانية تُحدث للمسلم آنذاك رقة وخشوعًا ولينًا ودموعًا، وقد أشار القرآن إليها في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، وليس التأثر بالقرآن هو التدبر، بل قد يكون أثرًا من آثار التدبر، وقد يكون أثرًا لحالة وجدانية يعيشها المسلم، فتتحرك مشاعره الفيَّاضة، فينفعل مع القرآن بحواسِّه، ويتأثر بمواعظه من ترغيب وترهيب، وقد يكون لأسباب أخرى.

الخامس: حال العمل بالقرآن:

العمل بالقرآن هو تأوُّله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهذه المرحلة هي الغاية العظمى من إنزال القرآن الكريم، وهي التي تمثَّلها الرسول ﷺ في حياته، إذ لما سئلت عائشة عن خلقه ﷺ أجابت بإجابةٍ بليغة، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن سعد بن هشام بن عامر قال: «أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله ﷺ؟

قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

قلت: فإني أريد أن أتبتل. قالت: لا تفعل، أما تقرأ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ فقد تزوج رسول الله ﷺ، وقد وُلِدَ له».

وذكرت عائشة من تمثُّل رسول الله ﷺ للقرآن وتأوله له ما رواه البخاري بسنده عنها، قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ».

والعمل بالقرآن أداءٌ حركيٌّ، ولا يكون إلا بفهم المعنى، وقد يكون من آثار التدبر، وتخلُّفه يدلُّ على نقصٍ في الإيمان، إذ التمثُّل للقرآن وتأوُّله -كما هو حال النبي ﷺ- هو الكمال الإيماني.

*** الخلاصة:**

إن (التدبر) عملية عقلية، ويشترك معه -في كونه عملية عقلية- (التفسير) و(الاستنباط)، وقد ينشأ عن التدبر (التأثر)، وهو أمر وجداني، كما قد ينشأ عنه -أيضًا- العمل، وهو أمر حركي، يقوم على تنفيذ الأمر واجتناب النهي.

وإذا أمكن التمييز بين هذه المراحل التي لها علاقة بالتدبر، فإنه يمكن -كما سبق في مفهوم التدبر- القول بأن التدبر هو عموم النظر والتأمل في القرآن، سواء أنتج فائدة علمية أو لم يُنتج ذلك؛ لأن مجرد تقليب النظر في الآيات تدبر، وإن لم ينتج عنه آنذاك فائدة علمية معينة.

أما ما ينتج من التدبر؛ فإنه يقع في المجالات الآتية:

١- النظر في المعنى حال الخفاء، وهذا متعلق بالتفسير، أما إذا كان المعنى فيه ظهور؛ فإنه لا علاقة له بالتدبر، لعدم الحاجة لإعمال النظر وتقليب الفكر في الوصول إلى المعنى.

٢- الترجيح بين الأقوال المختلفة في فهم المعنى؛ لأنه يحتاج إلى إعمال النظر وتقليب الفكر للوصول إلى القول الأولى أو القول الصواب، وهذا متعلق بالتفسير أيضًا.

٣- الاستنباط، وهذا لا يكون إلا بالتدبر، والنظر في خفايا المعاني، ويمكن أن يقال: كل استنباط تدبُّرٌ، وليس كل تدبر استنباطًا.

وأنواع المستنبطات كثيرة؛ فقد تكون حكمًا فقهيًّا، وقد تكون آدابًا وسلوكًا تزكية، وقد تكون فوائد علمية من لغوية وبلاغية وأصولية وعقدية.

٤- تنزيل الآيات على الحوادث والأحوال الحياتية، وهذا ميدان واسع من ميادين إعمال التدبر، وقد يكون بإدخال الحادثة في معنى آية من الآيات، وقد يكون من باب الاستشهاد والتمثيل.

ولا يخفى -على ما سبق بيانه من نوع التدبر المطلوب من غير المؤمنين- أن التدبر الصحيح لو حصل من المنافقين ومن الكفار لوصلوا به إلى أنَّ هذا القرآن حقٌّ لا ريب فيه، وأن الله أنزله على نبيه محمد ﷺ، ومَن وصل إلى هذه النتيجة منهم؛ فحقيق عليه أن يؤمن به، ويتبع هداه.

ولذا يمكن أن نستشهد اليوم بالقرآن، ونطلب من الكفار -من باب إقامة الحجة أولاً، ثمَّ طلب الاهتداء ثانيًا- أن يتدبروا، هل أتى في القرآن ما يخالف العقل

الصحيح، والعلم الثابت الحق؟

فإن مَن لا يكابر لا يمكنه أن يصل إلا إلى نتيجة واحدة، وهي أن هذا القرآن وحي من الله، نزل بالحق، ولن يخالف في ذلك إلا مَن كانت على قلوبهم أقفالٌ لا يريدون فتحها، والاهتداء بهُدَى الله.

*** فائدة في المعاني المقاربة للتَّدبر:**

ويقربُ من معنى التَّدبُّرِ التَّفكُّرُ والتَّذكُّرُ والنَّظرُ والتَّأمُّلُ والاعتبارُ والاستبصارُ، قال ابن القيِّم (ت: ٧٥١): «... وهذا يسمَّى تفكُّرًا وتذكُّرًا ونظرًا وتأمُّلاً واعتبارًا وتدبُّرًا واستبصارًا، وهذه معانٍ متقاربةٌ تجتمعُ في شيءٍ وتتفرقُ في آخر.

ويسمَّى تفكُّرًا؛ لأنه استعمالُ الفكرةِ في ذلك، وإحضارُه عنده.

ويسمَّى تذكُّرًا؛ لأنَّه إحضارٌ للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهولِه وغيبتِه عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ويسمَّى نظرًا؛ لأنَّه التفاتٌ بالقلبِ إلى المنظورِ فيه.

ويسمَّى تأمُّلاً[1]؛ لأنه مراجعةٌ للنَّظرِ كرَّةً بعد كرَّةٍ، حتى يتجلَّى له وينكشفَ لقلبِه.

ويُسَمَّى اعتبارًا، وهو افتعالٌ من العبورِ؛ لأنَّه يَعْبُرُ منه إلى غيرِه، فَيَعْبُرُ من ذلك

(١) يلاحظ أن التأمل لم يرد في القرآن، بخلاف الألفاظ الأخرى التي ذكرها ابن القيم، ومن باب الفائدة، فإن مادة (أمل) لم ترد في القرآن إلا في موضعين؛ في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

الذي قد فَكَّرَ فيه إلى معرفةٍ ثالثةٍ، وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يُسَمَّى عِبْرَةً، وهي على بناءِ الحالاتِ كالجِلْسَةِ والرِّكْبَةِ والقِتْلَةِ إيذانًا بأنَّ هذا العلمَ والمعرفةَ قد صار حالاً لصاحبِه يَعْبُرُ منه إلى المقصودِ به، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

ويُسمَّى تدبُّرًا؛ لأنَّه نَظَرَ في أدبارِ الأمورِ، وهي أواخرُها وعواقبُها، ومنه تدبُّرُ القول...»[1].

وكتبه

د. مساعد بن سليمان الطيار

الأستاذ المشارك بكلية المعلمين بالرياض

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١: ١٨٢).

openkandl.com

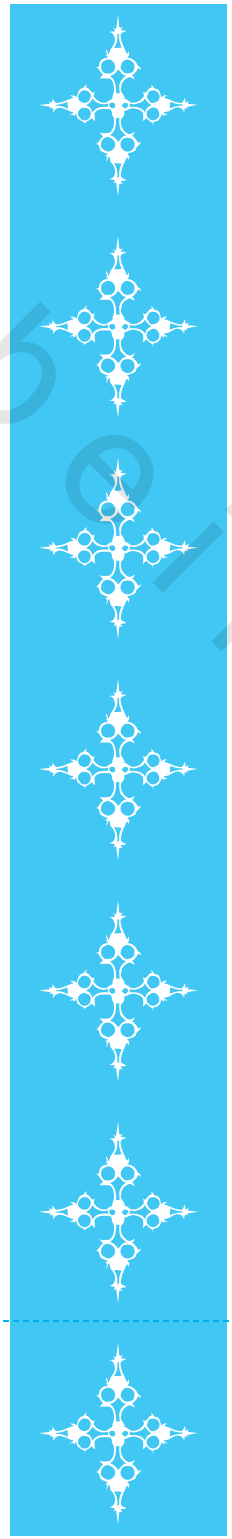

الجلسة الثانية :

التدبُّر عند المفسرين ١

الورقة الثانية:

تحرير معنى التدبُّر عند المفسرين

د. فهد بن مبارك الوهبي

obeikandl.com

الورقة الثانية:

د. فهد بن مبارك بن عبدالله الوهيبي

تحرير معنى التدبر عند المفسرين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن تحرير الحقائق العلمية وضبطها؛ من أهم المسائل التي عُني بها العلماء لضبط العلوم.

والحقائق العلمية منها ما يكون متفقًا على مضمونه -كالمصطلحات الشرعية في الغالب؛ من صلاة وزكاة وحج وإيمان وكفر وغيرها- ومنها ما يختلف العلماء فيه، فيقع لغير العارف بمرادهم الخلط والخطأ كما وقع ذلك في مصطلح النسخ والكراهة.

والكلمة التي ندرسها في هذه الورقة هي من الحقائق التي يتفق العلماء على مضمونها وإن اختلفت العبارات، كما سيأتي -إن شاء الله-.

وقد قسمت الحديث إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: تعريف التدبر في اللغة.

obeikandl.com

المبحث الثاني: معنى التدبر عند المفسرين.

المبحث الثالث: معنى إضافة التدبر للقرآن.

المبحث الرابع: الفرق بين التدبر والاستنباط.

المبحث الخامس: الفرق بين التدبر والتفسير.

المبحث السادس: نتائج البحث.

*** تمهيد:**

التدبر من الكلمات الواردة في القرآن على أصل معناها اللغوي ولم تنتقل إلى اصطلاح شرعي جديد، وهذا حال أغلب كلمات القرآن.

لذا لا يصح -في نظري والعلم عند الله- أن نفرد له تعريفًا شرعيًّا كما في مصطلح الصلاة والزكاة وغيرهما من الكلمات المنقولة عن معناها اللغوي إلى اصطلاح شرعي معروف، بل يبقى التعريف على الاستعمال اللغوي وبه تُفَسَّرُ الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة، وهذا هو عمل المفسرين رحمهم الله تعالى، فإنهم عرَّفوا التدبر بمعناه اللغوي، وذكروا في كل آية ما يناسب السياق.

يوضح هذا أن الحقيقة الشرعية: «هي اللفظ المستعمل فيما وضع له أولاً في الشرع كالصلاة للعبادة المخصوصة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم، وكالإيمان للاعتقاد والقول والعمل»[1].

(١) مذكرة أصول الفقه: (١٢).

ومثال الحقيقة الشرعية: تخصيص الهدي المذكور في قوله تعالى: (هديًا بالغ الكعبة): بالنَّعم مع كونه أخص من المعنى اللغوي الشامل لكل ما يُهدى للكعبة، وتخصيص الإيمان والكفر بالمعنى المعروف شرعًا.

obeikandl.com

قال الآمدي (ت: ٦٣١هـ): «وأما الحقيقة الشرعية؛ فهي استعمال الاسم الشرعي فيما كان موضوعًا له أولاً في الشرع.

وسواء كان الاسم الشرعي ومسماه لا يعرفهما أهل اللغة، أو هما معروفان لهم؛ غير أنهم لم يضعوا ذلك الاسم لذلك المعنى.

أو عَرَفُوا المعنى ولم يَعْرِفُوا الاسم، أو عرفوا الاسم ولم يعرفوا ذلك المعنى؛ كاسم الصلاة، والحج، والزكاة ونحوه، وكذلك اسم الإيمان والكفر»[1].

بناء على ذلك نقول: إن التدبر حقيقةٌ لغويةٌ متفقٌ على معناها، ولم ينتقل إلى حقيقة شرعية، وإنما يفسر عند الإضافة بما يناسب المضاف إليه، كما سيأتي عند الحديث عن المعنى الإضافي في (تدبر القرآن).

ثم إن التدبر قد أصبح حقيقة عرفية عند المفسرين والمراد بها تدبر القرآن، فإذا أطلق التدبر عندهم فالمراد به أخص من المدلول العام للتدبر.

(١) الإحكام: (١ / ٢٧).

opelkandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول :

تعريف (التدبُّر) في اللغة

قبل الحديث عن معنى التدبر عند المفسرين ينبغي أن نعرج بلمحة سريعة على معنى التدبر في اللغة حتى يتبين ما قدمناه في التمهيد من كون التدبر حقيقة لغوية لم تنتقل إلى اصطلاح شرعي.

* التدبر في اللغة:

تدور مادة الكلمة حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها، فالتدبُّر هو: النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه.

قال الزجاج (ت: ٣١١ هـ): «التدبر: النظر في عاقبة الشيء»[١].

وقال ابن فارس (ت: ٣٩٥ هـ): «دبر: الدال والباء والراء أصل هذا الباب أنَّ جُلَّه في قياسٍ واحد، وهو آخِر الشَّيء»[٢].

وقال الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ) في تعريف التدبر: «عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكرَ تصرفُ القلب بالنظر في الدليل، والتدبر

(١) زاد المسير: (٢ / ٧٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة: (٢ / ٢٦٦)، وانظر: العين: (٢ / ١١٧).

تصرفه بالنظر في العواقب»[1].

والتدبير والتدبر: نظرٌ في عواقب الأمور[2]؛ فتنظر إلى ما يؤول إليه عاقبتُه[3].

(١) التعريفات: (١٧).

(٢) العين للخيل: (٢ / ١١٧)، والقاموس المحيط: (١ / ٤٠٣).

(٣) انظر: الصحاح في اللغة: (١ / ١٩٧).

obeikandl.com

المبحث الثاني :

تحرير معنى (التدبُّر) عند المفسرين

لم يختلف استعمال المفسرين للتدبر عن معناه اللغوي، بل جاء على الاستعمال السابق.

ويمكن تحرير ذلك بأمرين:

الأول: النظر في تعاريفهم لكلمة التدبر[1]:

قال ابن عطية (ت: ٥٤٢ هـ): «التدبر: النظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء»[2].

وقال البغوي (ت: ٥١٦ هـ): «التدبر: هو النظر في آخر الأمر، ودُبر كل شيء آخره»[3].

وقال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): «تدبُّر الأمر: تأمُّله والنظر في إدباره وما يؤول

(١) جمعت في ذلك ما وجدتُ من كلام المفسرين حتى يكون بين يدينا -مع كثرة النقل- بقصد الخروج بالنتيجة المذكورة في البحث.

(٢) المحرر الوجيز: (٢ / ١٦١).

(٣) تفسير البغوي: (٢ / ٢٥٤).

obeikandl.com

إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه»[١].

وقال الرازي (ت: ٦٠٦ هـ): «التدبير والتدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها»[٢].

وقال ابن عادل (ت: ٨٨٠ هـ): «والتَّدْبير والتَّدَبُّر: عبارة عن النَّظَر في عَوَاقِب الأُمُور وأَدْبَارِهَا»[٣].

وقال الشوكاني (ت: ١٢٥٠ هـ): «يقال تدبرت الشيء: تفكرت في عاقبته وتأملته، ثم استعمل في كل تأمل، والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته»[٤].

وقال الآلوسي (ت: ١٢٧٠ هـ): «وأصل التدبر التأمل في أدبار الأمور وعواقبها ثم استعمل في كل تأمل سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»[٥].

وقال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣ هـ): «والتدبُّر مشتقٌّ من الدُّبر، أي الظَّهر، اشتقُّوا من الدُّبر فعلاً، فقالوا: تدبَّر إذا نظر في دبر الأمر، أي في غائبه أو في عاقبته، فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة. والتدبُّر يتعدَّى إلى المتأمَّل فيه بنفسه، يقال: تدبَّر الأمرَ؛ فمعنى: ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: يتأمَّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين:

(١) الكشاف: (١ / ٤٣٨).
(٢) تفسير الرازي: (٥ / ٣٠٠).
(٣) تفسير اللباب: (٥ / ٢٦٩).
(٤) فتح القدير: (٢ / ١٨٠).
(٥) روح المعاني: (٤ / ١٥٠).

أحدهما: أن يتأمَّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبَّر تفاصيله.

وثانيهما: أن يتأمَّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنَّه من عند الله، وأنَّ الذي جاء به صادق»[(١)].

وقال أيضًا: «والتدبر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له، وأصله أنه من النظر في دُبُر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للمتأمل بادئ ذي بدء»[(٢)].

الثاني: النظر في تفاسيرهم للآيات التي وردت فيها هذه الكلمة:

قال البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ): «﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه، وأصل التدبر النظر في أدبار الشيء»[(٣)].

وقال أيضًا: «﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ليتفكروا فيها فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة»[(٤)].

وقال البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ): «﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي يتأملون، يقال: تدبرت الشيء إذا تفكرت في عاقبته وآخر أمره»[(٥)].

وقال الشنقيطي (ت: ١٣٩٣ هـ) في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]: «وقد ذكر جل وعلا، في هذه الآية الكريمة، أنه أنزل هذا الكتاب، معظمًا نفسه جل وعلا، بصيغة الجمع، وأنه كتاب

(١) التحرير والتنوير: (٣ / ٤٨٣).
(٢) السابق: (٩ / ٣٨٥).
(٣) تفسير البيضاوي: (١ / ٤٧٨).
(٤) أنوار التنزيل: (٥ / ٩٣).
(٥) نظم الدرر: (٢ / ٢٣٨).

مبارك وأن من حِكَم إنزاله أن يتدبر الناس آياته، أي يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى، وأن يتذكر أولوا الألباب، أي يتعظ أصحاب العقول السليمة، من شوائب الاختلال»[1].

وقال في آية سورة محمد: «ومعلوم أن كل مَن لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]»[2].

(١) أضواء البيان: (٧/ ٩).

(٢) أضواء البيان: (٧/ ٣٥٨).

obeikandl.com

المبحث الثالث :

معنى إضافة (التدبُّر) للقرآن

يمكن الخروج بتعريف لكلمة التدبر بمعناها الاصطلاحي عند المفسرين بأن التدبر هو: (تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والاعتبار).

* فكلمة (تأمل) قد اتفق عليها أغلب المعرفين للتدبر.

* وكلمة (القرآن) هي الواردة في نص الآية الكريمة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وفي قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

* وجملة (بقصد الاتعاظ والاعتبار): هي نتيجة التدبر وثمرته، كما قال تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، ومما يدل على كون هذا هو المراد بالتدبر: توجيه الخطاب في الآيات الآمرة به للكفار والمنافقين، والمقصود من ذلك اتعاظهم بما ورد في القرآن، واعتبارهم الهادي إلى الإيمان واتباع الشرع.

وهكذا يكون المقصود عند تعميم الأمر ليشمل المسلمين؛ فالتدبر متوجه إلى اتعاظ القلب واعتباره مما يُثمر بعد ذلك آثارًا دالة على الخشوع؛ كوجل القلب،

والبكاء، والخشية، وزيادة الإيمان، وغير ذلك مما ذكره الله تعالى في كتابه نتيجة التأثر بالقرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

قال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): «وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو، لم يحل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل مَن له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله! ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، وأعذنا من القراء المتكبرين»[1].

(١) الكشاف: (٦ / ١٧).

openkanal.com

المبحث الرابع :

العلاقة بين (التدبُّر) والاستنباط

الاستنباط في اللغة: هو الاستخراج[1]، استفعال من أَنْبَطْتُ كذا[2] ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[النساء: ٨٣] أي: يستخرجونه[3].

وإِنْبَاطُ الماء، واسْتِنْبَاطُه: إِخْرَاجُه، واسْتِخْرَاجُه[4].

ويَظْهَرُ من استعمالات العلماء لمادة نبط؛ أن لفظ الاستنباط في اللغة يُستخدم

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٩٧٢)، الصحاح للجوهري: (٣ / ١١٦٢)، تهذيب الصحاح للزنجاني: (٢ / ٤٦٥)، الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمداني: (١ / ٧٦٨)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم للحميري: (١٠ / ٦٤٧٥)، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: (٥ / ٧).

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: (٧٨٨).

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة: (١ / ١٣٤)، غريب القرآن وتفسيره للزيدي: (١٢٢)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (١٣٢)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٢ / ٨٣)، معاني القرآن للنحاس: (٢ / ١٤١)، المفردات في غريب القرآن للأصفهاني: (٧٨٨)، معالم التنزيل للبغوي: (١ / ٤٥٦)، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي: (٤ / ١٣٨)، تفسير القرآن للعز ابن عبد السلام: (١١١).

(٤) الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمداني: (١ / ٧٦٩).

لكل ما أُخْرِجَ أو أُظْهِرَ بعد خفاءٍ. ويدل على ذلك صراحةً الأقوالُ التالية:

قال ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ): «وكل مستخرج شيئًا، كان مستترًا عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب؛ فهو له مستنبط»[١].

وقال ابن دريد (ت: ٣٢١هـ): «وكل شيء أظهرته بعد خفائه، فقد أنبطته واستنبطته...، واستنبطتُ هذا الأمرَ، إذا فَكَّرت فيه فظهر»[٢].

وقال المنتجب الهمداني (ت: ٦٤٣هـ): «يقال لكل ما استخرج حتى تقع عليه رؤيةُ العيونِ، أو معرفةُ القلوبِ: قد اسْتُنْبِط»[٣].

وقال الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ): «وكل ما أُظهر بعد خفاءٍ فقد أُنْبِطَ واسْتُنْبِطَ، وفي البصائر: وكل شيء أظهرته بعد خفائه، فقد أنبطته واستنبطته»[٤].

ومما سبق يتبين أن معنى الاستنباط في اللغة هو: الاستخراج أو الإظهار بعد الخفاء.

وأما الاستنباط في الاصطلاح:

فقد عرَّفه غيرُ واحد من العلماء، ومن تلك التعاريف:

١- قال ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ):

«وكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب؛ فهو له مستنبط»[٥].

---

(١) جامع البيان: (٤ / ١٨٤).

(٢) جمهرة اللغة لابن دريد: (١/ ٣١٠)، وانظر المعجم الوسيط: (٢ / ٨٩٧). ونقله الصغاني في العباب الزاخر: حرف الطاء: (٢٠٧).

(٣) الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمداني: (١ / ٧٦٨).

(٤) تاج العروس للزبيدي: (٢٠ / ١٢٩).

(٥) جامع البيان: (٤ / ١٨٤).

٢- قال الجصاص (ت: ٣٧٠هـ):

«اسم لكل ما استخرج حتى تقع عليه رؤية العيون، أو معرفة القلوب، والاستنباط في الشرع: نظير الاستدلال، والاستعلام»[١].

٣- قال الماوردي (ت: ٤٥٠هـ):

«والاستنباط: مختصٌّ باستخراج المعاني من النصوص»[٢].

٤- قال الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ):

«ما يستخرجه الرجلُ، بفضلِ ذهنِه، من المعاني والتدابيرِ[٣]، فيما يَعْضُلُ ويهم»[٤].

٥- قال النووي (ت: ٦٧٦هـ):

«قال العلماء: الاستنباط استخراج ما خفي المرادُ به من اللفظ»[٥].

---

(١) أحكام القرآن: (٢ / ٢١٥).

(٢) أدب القاضي: (١ / ٥٣٥)، ويقصد بالمعاني العلل كما ذكر ما يدل عليه في: (١ / ٥٣٦) منه.

(٣) قال الجرجاني: «التدبير: استعمال الرأي بفعل شاق، وقيل: النظر في العواقب بمعرفة الخير، وقيل: التدبير إجراء الأمور على علم العواقب، وهي لله تعالى حقيقةً وللعبد مجازًا». التعريفات: (٥٤).

(٤) الكشاف: (٢ / ١١٧)، وهذا التعريف ذكره غير واحد من العلماء منهم: النسفيُّ في: مدارك التنزيل: (١ / ٣٥٠)، والخازنُ في: لباب التأويل: (٢ / ١١٩)، وعلاءُ الدين البخاري في: كشف الأسرار: (١ / ٦٥).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات: (ق ٢ / ١/ ١٥٨)، ويلاحظ أن هذا التعريف يكتسب قوة حيث نسبه النووي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى العلماء؛ فكأنه تعريف لمجموعة من العلماء وليس تعريفًا خاصًّا بالنووي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦- قال ابن القيم (ت: ٧٥٢هـ):

«استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفى على غيرِ المُسْتَنْبِط»[١].

ويظهر لي -والعلم عند الله- أنه يمكن الخروج بتعريف يجمع ما اتفقت عليه التعاريف السابقة، وهو أن نقول:

(الاستنباط هو: استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح)[٢].

وبعد معرفة معنى الاستنباط يمكن بيان العلاقة بين الاستنباط والتدبر بما يلي:

١- إن التدبر أصل الاستنباط، فلا يمكن الاستنباط من النص قبل تدبره والتأمل في معانيه.

قال الإمام ابن القيم (ت: ٧٥٢ هـ):

«والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم مَن يفهم من الآية حُكْمًا أو حُكْمَيْن، ومنهم مَن يفهم منها عشرةَ أحكام، وأكثر من ذلك، ومنهم مَن يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ، دون سياقه، ودون إيمائه، وإشارته، وتنبيهه، واعتباره»[٣].

وقال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ): «وإنك لتمرُّ بالآية الواحدة، فتتأملها، وتتدبرها؛ فتنهال عليك معانٍ كثيرة، يسمح بها التركيب، على اختلافِ الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي، وقد تتكاثرُ عليك، فلا تك -مِنْ كثرتها- في حصر، ولا تجعل الحملَ على بعضها، منافيًا للحمل على البعض الآخر، إِنْ كان التركيبُ سمحًا

(١) إعلام الموقعين: (١ / ١٧٢).

(٢) انظر: منهج الاستنباط من القرآن الكريم: (٤٥).

(٣) إعلام الموقعين: (١ / ٢٦٧).

openkandil.com

بذلك»[1].

٢- إن التدبر يعم العلماء وغيرهم، والاستنباط خاصٌّ بأولي العلم:

ومن لطيف التناسب بين الآيات الدال على هذا الأمر أن آية الاستنباط جاءت عقب آية التدبر كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٢-٨٣]؛ فوجه الأمر بالتدبر للعموم، وخص الاستنباط بأولي العلم.

٣- يظهر لي -والعلم عند الله- أن التدبر المأمور به في القرآن؛ متوجه للمقاصد الأصلية من آيات القرآن الكريم، التي تدعو بتأملها إلى الاهتداء بهدي الإسلام والإيمان بالله تعالى، والإقرار بصدق الرسالة، لذا فإن التدبر متوجهٌ إلى الكفار ليُسلموا، ونتيجة التدبر المذكورة في الآيات تؤيد ذلك؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فالتدبر يدل على كون هذا القرآن من عند الله تعالى لصحة أخباره وما تضمنه من الهدايات، وأما الاستنباط فهو لدقائق الأمور، لذا خُصَّ بالعلماء دون غيرهم.

(١) التحرير والتنوير: (١ / ٩٧).

obeikandi.com

obeikandl.com

المبحث الخامس :

العلاقة بين (التدبُّر) والتفسير

يمكن بيان العلاقة بين التدبر والتفسير وذلك بمعرفة مصطلح التفسير، ثم المقارنة بينه وبين التدبر.

أولًا: التفسير في اللغة:

التفسير: تفعيل من الفَسْر، وهو: البيانُ[1]، أو الإبانةُ وكشفُ المُغَطَّى[2].

فالفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه[3]. يقال: فَسَرْتُ الشيءَ أَفْسِرُه -بالكسر- فَسْرًا، ويقال: فَسَر الشيءَ يفْسِرُه ويَفْسُرُه وفسَّره[4]، والتشديدُ

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٨١٨)، شمس العلوم للحميري: (٨ / ٥١٨٩)، لسان العرب لابن منظور: (٥ / ٥٥)، الصحاح للجوهري: (٢ / ٧٨١). وانظر: جمهرة اللغة لابن دريد: (٢ / ٣٣٤)، تاج العروس للزبيدي: (١٣ / ٣٢٣)، القاموس المحيط للفيروز آبادي: (٢ / ١١٤).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري: (١٢ / ٤٠٦)، القاموس المحيط للفيروز آبادي: (٢ / ١١٤).

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٤ / ٥٠٤).

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٤ / ٥٠٤)، الصحاح للجوهري: (٢ / ٧٨١)، تاج العروس للزبيدي: (١٣ / ٣٢٣)، لسان العرب لابن منظور: (٥ / ٥٥).

obeikandl.com

أعمُّ في الاستعمال[١]، وبه جاء القرآنُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]؛ أي: بيانًا وتفصيلاً[٢].

ويقال: استفسرته كذا، أي سألته أن يُفَسِّره لي[٣].

قال ابن الأعرابي (ت: ٢٣١هـ): «الفَسْر: كشف ما غُطِّي، وقال الليث: الفَسْر: التفسيرُ وهو بيانُ وتفصيلُ الكتاب»»[٤].

وقيل: مأخوذ من قولهم: فسَرْتُ الحديث، أفسِرُهُ، إذا بيَّنْتُه، وفسَّرته تفسيرًا كذلك[٥].

ومنه الفَسْر والتَّفْسِرة وهي: نَظَرُ الطبيبِ إلى الماء وحُكْمُه فيه[٦].

وكلُّ شيء يُعرف به تفسيرُ الشيء ومعناه فهو تَفْسِرته[٧].

ومما يلاحظ أن اشتقاق كلمة (فَسَرَ) تدل على البيان، والإيضاح، والإظهار، والكشف؛ فتفسير الكلام: بيانه، وإيضاحه، وإظهاره، والكشف عن المراد منه[٨].

---

(١) تاج العروس للزبيدي: (١٣ / ٣٢٣)، ونقل هذا التعميم عن ابن القطاع.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير: (١٧/ ٤٤٨)، وانظر:تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٩٨٠)، ومعالم التنزيل للبغوي: (٦ / ٨٣).

(٣) الصحاح للجوهري: (٢ / ٧٨١)، وانظر: تاج العروس للزبيدي: (١٣ / ٣٢٤).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري: (١٢ / ٤٠٦-٤٠٧). وانظر كتاب العين للخليل: (٧ / ٢٤٧).

(٥) جمهرة اللغة لابن دريد: (٢ / ٣٣٤).

(٦) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٤ / ٥٠٤)، الصحاح للجوهري: (٢ / ٧٨١). وقال الجوهري عن التفسرة: «وأظنه مولَّدًا».

(٧) كتاب العين للخليل: (٧ / ٢٤٨)، تهذيب اللغة للأزهري: (١٢ / ٤٠٧)، تاج العروس للزبيدي: (١٣ / ٣٢٤)، وانظر أساس البلاغة للزمخشري: (٢ / ٢٢).

(٨) تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه للعبيد: (١٦).

obeikandl.com

ثانيًا: التفسير في الاصطلاح:

اشتهر تعريف التفسير في الاصطلاح عند العلماء واختلفت عباراتهم في الدلالة على هذا العلم، ومن أشهر التعاريف ما يلي[(١)]:

١- قال ابن جزي الكلبي (ت: ٧٤١هـ):

«معنى التفسير: شرح القرآن، وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصِّه أو إشارته أو نجواه[(٢)]»[(٣)].

٢- وقال أبو حيان (ت: ٧٤٥هـ):

«التفسير: علم يُبْحَثُ فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحْمَل عليها حال التركيب وتتمات ذلك»[(٤)].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذا التعريف:

«فقولنا (علم): هو جنس يشمل سائر العلوم.

وقولنا: (يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن): هذا علم القراءات.

وقولنا: (ومدلولاتها): أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا علم اللغة الذي يُحتاج إليه في هذا العلم.

وقولنا: (وأحكامها الإفرادية والتركيبية): هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع.

---

(١) استفدت في جمع هذه التعريفات من كتاب التفسير اللغوي: (٢١ ٢٥).

(٢) هكذا وجدته ولعله أو فحواه.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل: (٨٧٥).

(٤) البحر المحيط: (١ / ١٢١).

obeikandi.com

(ومعانيها التي تحمل عليها حال التركيب): شمل بقوله: (التي تحمل عليها): ما لا دلالة عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز، فإنَّ التركيب قد يقتضي بظاهره شيئًا، ويصدُّ عن الحمل على الظاهر صادٌّ، فيحتاج لأجل ذلك أن يُحمل على غير الظاهر، وهو المجاز.

وقولنا: (وتتمات ذلك): هو معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصةٌ توضح ما انبهم في القرآن، ونحوُ ذلك»[1].

٣- قال الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ):

«علم يعرف به فَهْمُ كتاب الله المنزَّل على نبيه محمد e، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمِه»[2].

وقال في موضع آخر:

«هو عِلْم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكِّيِّها ومدنيِّها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها»، قال: «وزاد فيه قوم: علم حلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعِبَرِها وأمثالها»[3].

٤- وقال ابن عرفة المالكي (ت: ٨٠٣ هـ):

«هو العلم بمدلول القرآن وخاصيَّة كيفية دلالته، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»[4].

(١) البحر المحيط: (١ / ١٢١).
(٢) البرهان في علوم القرآن: (١ / ١٣).
(٣) البرهان: (٢ / ١٤٨).
(٤) تفسير ابن عرفة: (١ / ٥٩).

obeikandi.com

قال في شرح هذا التعريف: «فقولنا: (خاصية كيفية دلالته): هي إعجازه، ومعانيه البيانيّة، وما فيه من علم البديع الذي يذكره الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، ومَن نحا نحوه»[١].

٥- وقال الكافيجي (ت: ٨٧٩هـ):

«وأما التفسير في العرف[٢] فهو: كشف معاني القرآن، وبيان المراد»[٣].

٦- وقال الزُّرْقاني (ت: ١٣٦٧هـ):

«علم يُبْحَثُ فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية»[٤].

٧- وقال محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ):

«اسم للعِلْم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصار أو توسُّع»[٥].

٨- وقال الشيخ مناع القطان (ت: ١٤٢٠هـ):

«بيان كلام الله المنزل على محمد ﷺ»[٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن عرفة: (١ / ٥٩).

(٢) يظهر أن الكافيجي يُعَبِّرُ بقوله: (العرف) ويريد (الاصطلاح)، وقد تكرر استخدامه هذا في تعريفات: التأويل، والقرآن، وغيرهما، انظر كتابه: التيسير في قواعد التفسير: (١٢٥، ١٦١، ١٦٧).

(٣) التيسير في قواعد التفسير: (١٢٤).

(٤) مناهل العرفان: (٢ / ٧).

(٥) التحرير والتنوير: (١ / ١١).

(٦) نقلته عن التفسير اللغوي: (٢٤)، ونقله عن مذكرة علوم القرآن كتبها الشيخ لطلاب الدراسات العليا بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بالرياض عام ١٤١٩-١٤١٠هـ.

٩- وقال الشيخ محمد بن عثيمين (ت: ١٤٢١هـ):

«بيان معاني القرآن الكريم»[١].

١٠- وقال الدكتور مساعد الطيار:

«التفسير: بيان القرآن الكريم»[٢].

وقال في شرح هذا التعريف: «فخرج بـ(البيان): ما كان خارجًا عن حدِّ البيان؛ ككثير من المسائل الفقهية، والمسائل النحوية، ومبهمات القرآن، وغيرِها مما يُذكر في كتب التفسير، مما لا أثر له في التفسير.

ويخرج بـ(القرآن): غيرُ كلام الله سبحانه، وكلامُه لملائكته، وكلامُه لرسلِه السابقين، والحديثُ القدسيُّ، والله أعلم»[٣].

وبعد الاطلاع على ما سبق من التعاريف، ومعرفة ما يُعترض به عليها، يمكن القول: بأن تعريف مصطلح التفسير يختلف باختلاف مقصود المعرِّف، فإن كان المراد تحديد مصطلح التفسير عند العلماء السابقين، فيمكن تعميمه ليشمل جوانب أخرى غير التي اقتصر عليها المتأخرون، ولذا يكون مصطلحُ التفسيرِ عندهم أعمَّ وأشملَ ممن جاء بعدهم، وهذا صريح كلامهم، ومنطوق تعاريفهم، ولا يمكن محاكمة كتبهم على اصطلاح حادث بعدهم، وإن كان المقصودُ تحديد ما هو الألصق بلفظ التفسير اللغوي من تلك التعاريف، فلا شك أن الاقتصار على ذكر البيان في التعاريف هو الأولى.

---

(١) أصول في التفسير: (٢٨).

(٢) التفسير اللغوي: (٣٢).

(٣) التفسير اللغوي: (٣٢).

obeikandl.com

فنحن إذن أمام مصطلح تغير مفهومه من جيل إلى جيل، فنجد المفهوم لدى المتقدمين -أو أغلبهم- أعم وأوسع، وهو الشأن في جميع العلوم حتى تستقر وتتحرر، وهذا منهج التعميم للمصطلح.

ثم جاء منهج تحريره وتمحيصه وبيان علاقته بغيره مما أدخل فيه، وهذا أدق.

ويمكن بيان العلاقة بين التدبر والتفسير بما يلي:

١- إن التدبر لا يكون إلا بعد معرفة التفسير الصحيح للآية كما سيأتي في النتائج.

٢- إن التفسير في عمل المفسرين يشمل التدبر، فكتب التفسير مشتملة على الكثير من تدبر القرآن والحث عليه وذكر ثمرات لتدبر آيات من القرآن الكريم.

٣- إن التدبر من أكبر مقاصد التفسير، وذلك لأن كثيرًا من آيات القرآن الكريم هي آيات عظة وعبرة، وبيان تلك العبر والعظات هي من التفسير قطعًا، لكونها بيان المراد من هذه الآيات.

٤- إن المقصود الأصلي للتفسير هو بيان معاني كلام الله تعالى، ومقصود التدبر هو الاتعاظ والاعتبار.

obeikandi.com

obeikandl.com

المبحث السادس :
أهم النتائج من البحث

وبعد النظر في كلام المفسرين وفي الآيات الواردة في التدبر يمكن لنا أن نخلص إلى النتائج التالية:

١ - إن التدبر لا يكون إلا بالتأمل:

يقول الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): «تدبُّر الأمر: تأمُّله والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه»[(١)].

وقال البيضاوي(ت: ٦٨٥ هـ): «﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتأملون في معانيه»[(٢)].

وقال البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ): «﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ أي يتأملون»[(٣)].

وقال الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ): «يقال تدبرت الشيء: تفكرت في عاقبته

(١) الكشاف: (١ / ٤٣٨).

(٢) تفسير البيضاوي: (١ / ٤٧٨).

(٣) نظم الدرر: (٢ / ٢٣٨).

obeikandl.com

وتأملته، ثم استعمل في كل تأمل»[1].

ويقول الآلوسي (ت: ١٢٧٠ هـ): «وأصل التدبر: التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل، سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»[2].

٢- إن محل التأمل هو مدلولات الآيات:

قال البغوي (ت: ٥١٦ هـ): «﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ﴾ أي: يتدبروا، ﴿ ٱلْقَوْلَ ﴾ يعني: ما جاءهم من القول وهو القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد ﷺ»[3].

وقال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣ هـ): «فمعنى: ﴿ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتأملون دلالته»[4].

٣- إن غاية التدبر هي الهداية والاعتبار:

قال ابن عطية (ت: ٥٤٢ هـ): «وتدبر القرآن: زعيم بالتبيين والهدى»[5].

وهي هدايتان:

هداية عامة: وهي الإيمان بكون هذا القرآن حق من عند الله تعالى، وأن مَن جاء به رسول صدق، وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

(١) فتح القدير: (٢ / ١٨٠).

(٢) روح المعاني: (٤ / ١٥٠).

(٣) معالم التنزيل: (٥ / ٤٢٣).

(٤) التحرير والتنوير: (٣ / ٤٨١).

(٥) المحرر الوجيز: (٦ / ١٣٩).

openkanal.com

وهداية خاصة: وهي الوصول إلى مقاصده التفصيلية التي تدل عليها آياته الكريمة.

قال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣ هـ): «وذلك يحتمل معنيين: أحدهما: أَنْ يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبر تفاصيله؛ وثانيهما: أَنْ يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أَنَّه من عند الله، وأَنَّ الذي جاء به صادق»[(١)].

وقال السعدي (ت: ١٣٧٦ هـ): «أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل»[(٢)].

٤- إن التدبر مبني على معرفة التفسير وفهم المعاني:

يتضح ذلك من قول الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): «فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه»[(٣)].

فالمعاني إذًا معلومة للمتدبر، لذا فإنه ينتقل إلى التأمل والتبصر لأجل الوصول إلى التدبر، ومثله قول البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ): «﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه»[(٤)].

(١) التحرير والتنوير: (٣/ ٤٨٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن: (١/ ٧٨٨).
(٣) الكشاف: (١/ ٤٣٨).
(٤) أنوار التنزيل: (١/ ٤٧٨).

٥- إن صحة التدبر مرهونة بسلامة القلب:

لذا يقول جل وعلا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]؛ فالمشركون الذين أصابهم الرين لم ينتفعوا بهذا القرآن، بل وصل بهم تدبرهم إلى القول بأنه شعر أو سحر.

٦- إن اتباع المتشابه صاد عن التدبر:

قال قتادة (ت: ١١٨ هـ): «إذًا والله يجدون في القرآن زاجرًا عن معصية الله لو تدبره القوم فعقلوه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا عن ذلك»[(١)].

٧- إن ثمرة التدبر تحصل بالدوام والاستمرار عليه:

قال البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ): «ولما كان الاستفهام إنكاريًّا؛ فكان معناه نفيًا، فهو لكونه داخلاً على النفي، نفي له؛ فصار إثباتًا، فكان كأنه قيل: هل يجددون التدبر تجديدًا مستمرًّا لترق قلوبهم به وتنير بصائرهم له، فيكفوا عن الإفساد والتقطيع»[(٢)].

٨- إن التدبر دافع لموهم التعارض بين الآيات القرآنية:

بدليل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، قال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): «فإن قلت: أليس نحو قوله: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف:١٠٧]، ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ [النمل:١٠]، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٩٢]، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٣٩] من الاختلاف؟

قلت: ليس باختلاف عند المتدبرين»[(٣)].

(١) جامع البيان: (٢٢ / ١٧٩)، والدر المنثور: (٩ / ٢٠٣).
(٢) نظم الدرر: (٨ / ٩٨).
(٣) الكشاف: (١ / ٤٣٨).

وقال ابن كثير (ت: ٧٧٤ هـ) في هذا المعنى: «﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي: اضطرابًا وتضادًّا كثيرًا؛ أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله؛ كما قال تعالى مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين، وذم الزائغين»(١).

وقال الآلوسي (ت: ١٢٧٠ هـ): «وما يظن من الاختلاف كما في كثير من الآيات، ومنه ما سبق آنفًا ليس من الاختلاف عند المتدبرين»(٢).

٩- إن الأمر بالتدبر يدل على أن القرآن معلوم المعنى:

قال الرازي (ت: ٦٠٦ هـ): «دلت الآية على أن القرآن معلوم المعنى خلاف ما يقوله مَن يذهب إلى أنه لا يعلم معناه إلا النبي والإمام المعصوم، لأنه لو كان كذلك لما تهيأ للمنافقين معرفة ذلك بالتدبر، ولما جاز أن يأمرهم الله تعالى به، وأن يجعل القرآن حجة في صحة نبوته، ولا أن يجعل عجزهم عن مثله حجة عليهم، كما لا يجوز أن يحتج على كفار الزنج بمثل ذلك»(٣).

١٠- إن الأمر بالتدبر غير مقتصر على المسلمين، بل يشمل الكفار، وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨].

قال الطبري (ت: ٣١٠ هـ): «يقول تعالى ذكره: أفلم يتدبر هؤلاء المشركون

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢ / ٣٦٤).
(٢) روح المعاني: (٤ / ١٥٠).
(٣) مفاتيح الغيب: (٥ / ٣٠١).

تنزيل الله وكلامه، فيعلموا ما فيه من العبر، ويعرفوا حجج الله التي احتج بها عليه فيه؟»[1].

وقال الشوكاني (ت: ١٢٥٠ هـ): «قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] بيَّن سبحانه أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة: الأول: عدم التدبر في القرآن؛ فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه وآمنوا به وبما فيه»[2].

وقال السعدي (ت: ١٣٧٦ هـ): «﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] أي أفلا يتفكرن في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه؛ أي فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر»[3].

قال الشوكاني (ت: ١٢٥٠ هـ): «وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر، والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر»[4].

والله أعلم،،، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه

د. فهد بن مبارك الوهبي

المحاضر في قسم الدراسات القرآنية

جامعة طيبة

(١) جامع البيان: (١٩ / ٥٦).

(٢) فتح القدير: (٥ / ١٦٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن: (١ / ٥٥٤).

(٤) فتح القدير: (٦ / ٢٤٢).

openkanal.com

obeikandl.com

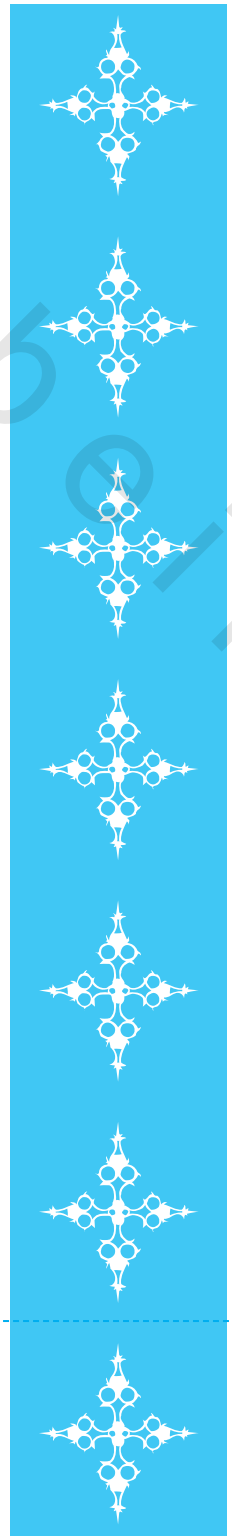

تعقيبات الجلسة الثانية

obeikandl.com

د. سعود الفنيسان

التعقيب الأول

الحمد لله، والصلاة على رسول الله نبينا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين... وبعد:

*** الوقفة الأولى:**

عند النظر في اسم السورة والتأمل فيها إذا كانت تسميتها نبوية من النبي ﷺ نجد أن الباحث ألحق بالنبي الصحابة إذا فسروا ذلك هذا في أثناء عرضه، بينما أنه لم يذكر هذا المعنى في الورقة، ومع ذلك أقول: إن محاولة الاستفادة من تسمية السورة في التدبر فيه تزيدٌ وتكلفٌ، أما إذا كانت التسمية من الصحابة وأكثر السور هي من تسمية الصحابة، فلا أظن أن هناك ربطًا وتأملاً في ذات الاسم بل فيه نوع من التزيد والتكلف المنهي عنه فيما يبدو لي.

*** الوقفة الثانية:**

بالنسبة لاستخراج موضوعات السورة ومقصدها، هذا عامٌّ في كل السور وليس خاصًّا بما سماه الرسول، فهناك سور سماها الرسول أو غيره، وأيضًا تناسب الآيات والمقاطع والنظر في مطلع السورة وخاتمتها ليس مطردًا في كل سور القرآن، فالسور

obeikandl.com

القصار ليس لها مقاطع ولا وحدات موضوعية ولا يمكن أن يعاد الصدر إلى العجز بحال، فلو خصص ذلك وقيل: معظم سور القرآن لكان هذا أدق وأولى.

*** الوقفة الثالثة:**

نقلَ الباحثُ عن ابن القيم نقلاً مطولاً وذكره من كتاب سماه: (زاد المهاجر)، وبالمناسبة أنا تتبعت في ترجمة ابن القيم الذين ترجموا له فلم أجد اسمًا لهذا الكتاب بهذا العنوان (زاد المهاجر)، ووجدت ما نقله حرفيًّا هو من «الرسالة التبوكية» من صفحات معلومة من ٧٣ إلى ٧٧.

*** الوقفة الرابعة:**

بالنسبة لنقله لكلام ابن القيم عن التدبر أنه ثلاثة أقسام، وذكر القسم الثالث بأنه لا يدخل في التدبر، وهو الأمور الغيبية، فهذا الترتيب من ابن القيم -على كل حال- سبق قلم أو نحو ذلك لمّا يقال: إنه قسم من الأقسام، والمراد بالذي لا يدخله هو معلومٌ أنه الغيبيات وحقائق يوم القيامة وكيفيات أسماء الله وصفاته، فهذه لا تدخل بحال من الأحوال في مفهوم التدبر، وليست موضوعًا للتدبر.

الحقيقة أن التدبر بصفة عامة مفتاح العلم والعمل، لكن هل الأمة الآن تعاني من أزمة علم في فهم القرآن، أو من أزمة نتيجة التدبر الذي هو العمل؛ فالتنظير كثير، وإذا نظرنا لقضية ما كتب ويكتب وما يقال ويخطب فيه فلم يحرك ساكنًا في كثيرٍ من الناس في هذا المعنى، ولذلك أقول: إن الأمة لا تعاني من أزمة منهج، فالمنهج مرسوم في كتاب الله سبحانه وتعالى وفي سنة رسوله، وقد اجتمع هذا المنهج في هذه الشرعة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب حيث قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ

﴿إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وأرى أن التدبر هو أن يكون فهم القرآن كخاطرة القلب التي تأتيه، ومن ثم ينفعل بها، أما أن يكون التدبر هو فهم المعنى ووضعه جانب ثم مراحله ثم أركانه وسننه وواجباته لا تعدو أن تكون هذه تكلفات وتزيدات هي التي أبعدت الناس عن فهم القرآن حقيقةً وعن معنى التدبر وعن ثمرة التدبر الذي هو العمل.

هناك أمورٌ كانت في القرون المفضلة الثلاثة الأولى نحن خالفنا كثيرًا منها، وأصابنا بالبعد عنها شيءٌ كثيرٌ من الضعف والتخلف، ومن هذه الأسباب:

أولًا: انشغال بعض العلماء في التعليم بالتركيز على الحفظ وعنو بالقرآن وبزيادة الأجر وحفظ آياته كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن ابن مسعود: «مَن قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: (الم) حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» لطلب الأجر، وتقوم مدارس التحفيظ على هذا الأساس، نعم التحفيظ له أجره، وله ثمرته وله خيرٌ كثيرٌ، لكن التركيز على التدبر للطفل الصغير وللعامي وللعالم هو أهم من تلاوة القرآن، وأهم من حفظه، لأن التدبر هو الثمرة العملية للقرآن، ونحن إذا كنا نتحدث عن التدبر يجب أن نتحدث عن هذا المعنى الحقيقي الذي يجب أن يكون فيه.

ثانيًا: ضعف النظر والاستنباط وهذا هو الذي بحثناه ونبحثه في هذا الملتقى، وهو البعد عن اللغة وعدم فهم دلالاتها.

ثالثًا: عدم ترتيب الأولويات وتقديم الأهم على المهم في قضية الأحكام التي دل عليها القرآن، فنحن أحيانًا نأخذ بالتحسينيات على حساب الحاجيات، وأحيانًا نأخذ

بالحاجيات على حساب الضروريات، في حين أن القرآن دعا إلى مراعاة الأولويات.

فالعقيدة وما يتعلق بها مقدمة على كل حكم من الأحكام، ثم تليها بعد ذلك الأحكام، وتتفاوت درجات الأحكام، ثم تأتي بعد ذلك الآداب والأخلاق والسلوك، أما أن يؤخذ ظاهر اللفظ في دلالة الأمر، الأمر يدل على الوجوب، والنهي يدل على الكراهة في مجمع الأمور كلها دون تفصيل؛ فأعتقد أن هذه الاصطلاحات التي أخذناها ولا زلنا نقررها كثيرًا في أصول الفقه ونحو ذلك وفي التعليم مما أبعدنا عن تدبر القرآن وعن فهم القرآن.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

openkandl.com

د. محمد بن عبدالرحمن الشايع

التعقيب الثاني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على خاتم المرسلين، وآله وأصحابه والتابعين، وبعـد:

فقد أحسن الباحث الفاضل فيما قدمه بين يدي المنتديين في هذا اللقاء في ورقته حول تحرير معنى التدبر عند المفسرين، والتي تناولت خمسة مباحث:

أولها: في التعريف اللغوي للتدبر.

وثانيها: في معنى التدبر عند المفسرين.

وثالث هذه المباحث: عن إضافة التدبر للقرآن الكريم واختصاصه به وتحوله إلى حقيقة عرفية.

والمبحث الرابع: خصه عن الفرق بين التدبر والاستنباط.

وآخر المباحث وهو خامسها: عن نتائج البحث؛ فهو في حكم خاتمة البحث.

ولاحاجة لإعادة ماسبق ذكره وعرضه ؛ فقد أجاد وأفاد.

وظاهرٌ أن البحث محصور الموضوع والمضمون من خلال تحديد العنوان وأنه تحرير لمعنى التدبر، ومن هنا قد لا يحق لنا أن نطالب الباحث -وفقه الله- بما هو

obeikandl.com

خارج عن عنوان بحثه؛ فهو بحث لغوي دلالي.

والتدبر أو تدبر القرآن الكريم ليس مصطلحًا مشكلاً يحتاج إلى تحريرٍ فهو لفظٌ واضح المعنى، ظاهر الدلالة، حاجته إلى الامتثال والتطبيق أكثر من حاجته إلى تحرير الاصطلاح، فدلالته اللغوية هي دلالته التفسيرية مع مراعاة السياق والسباق واللحاق للنص القرآني الكريم.

وقد اقتصر البحث في بيان المعنى التفسيري على متأخري المفسرين، وكان حري به استدعاء أقوال الصحابة والتابعين ومتقدمي المفسرين.

كما أن الكاتب الكريم أفرد الفرق بين التدبر والاستنباط بمبحث خاص أبان فيه -وأحسن- الفروق بينهما والتي تمثلت في ثلاثة أمور:

١- أن التدبر أصلٌ للاستنباط وسبب له.

٢- وأن التدبر عامٌّ، والاستنباط خاصٌّ بخواص العلماء.

٣- وأن التدبر للمعاني الكبيرة والمقاصد العظيمة، والاستنباط لدقائق المسائل وفروعها، وكان يحسن بالباحث أن تتسع نظرته؛ فتشمل الفروق بين التدبر والمصطلحات والعبارات المقاربة كالتفكر، والتذكر، والتعقل، والتعلم، والتفسير، بتحديد وتحرير معانيها وذكر الفروق الدقيقة بينها حيث الدراسة لغوية دلالية.

وما ذكره الباحث الفاضل واختاره من تعريف تدبر القرآن بأنه: (تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والاعتبار)، يحتاج مزيد تأملٍ، فإن الاتعاظ والاعتبار إنما هو نتيجة من نتائج التدبر، وثمرة من ثمراته، لا تنحصر به، ولا تقتصر عليه، وقد تكون خاصة بالمؤمن به، وثمرات التدبر أكثر من ذلك.

فقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا

﴿كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] هي دعوة لمعرفة مصدرية القرآن الكريم، وأنه ليس بشري المصدر، وإنما هو إلهي التنزيل فهي دعوة للإيمان، ثم يأتي بعد ذلك الاتعاظ والاعتبار، فجعلها ضمن التعريف فيه نظرٌ حيث هي خارجة عنه وزائدة عليه، ولو قيل عن تدبر القرآن: إنه تأمل القرآن، والنظر في معانيه، والتبصر بدلالاته ومآلاته وما فيه؛ أو نحو ذلك لكان حسنًا.

كما أن نتائج البحث التي أفردها الكاتب الكريم بمبحث خاص، تضمنت ما لم يتضمنه البحث، من ذكر بعض فوائد التدبر وثمراته وهي فوائد عظيمة حقها البسط في القول والاستقلال في المبحث.

كما أن عوائق التدبر، وأقفال القلوب من شهوات النفس، وشبهات العقل، وتوهين الشيطان وتوهيمه تحتاج دراسة بل دراسات.

ولا بد من القول بأن ترك التدبر من هجر القرآن والتفريط والتقصير في حقه الذي شكا منه ﷺ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

وفي الأخير لا بد من تكرار شكر الباحث على جهده، وجودة بحثه، وما ذكر ليس أكثر من وجهة نظر.

نسأل الله جلت قدرته أن يجعلنا من أهل القرآن، وأن يرزقنا تلاوته وحفظه، وتدبره، والدعوة إليه، والعمل به على الوجه الذي يرضيه عنا ويرضاه.

وكتبه

أ. د. محمد بن عبدالرحمن الشايع

أستاذ الدراسات القرآنية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

openkanal.com

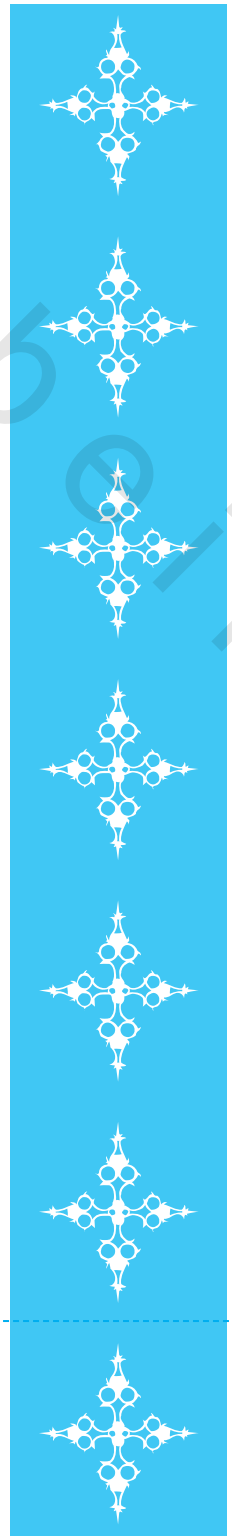

مداخلات الجلسة الثانية

obeikandl.com

د. محمد بن سعد الأيوبي

المداخلة الأولى

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده.. محمد وآله وصحبه..

وبعد:

فأشكر الله عز وجل على ما منَّ به من هذا اللقاء، وأشكر الإخوة القائمين على هذا اللقاء، وأسأل الله عز وجل أن يجعل ذلك في موازين حسناتهم.

ما لدي هنا في هذا المقام يركز على أمور عدة:

الأمر الأول: إن كثيرًا من الإخوة توقفوا كثيرًا عند الآيات التي وردت في التدبر فيها وردت هذه الآيات، وأنها وردت في الكافرين، وفي نظري أنه لا ينبغي أن نتوقف كثيرًا عند قضية فيمن نزلت فيه هذه الآيات؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا يكفينا: إن الله عز وجل أمر بالتدبر، وأنكر على الذين لا يتدبرون القرآن، وهذا يكفي.

الأمر الثاني: إن هناك خلطًا بين معنى التدبر، هل هو مفردة لغوية، أم لفظة قرآنية، وبين تطبيقها ومعرفة مؤيداتها ومجالات التدبر، فإننا كثيرًا ما نطلب ممن يفسرها من الناحية اللغوية أن يأتي بأشياء تتعلق بالتطبيق، وهذا خلط بين المفهوم اللغوي لكلمة

obeikandl.com

التدبر، وبين ما يتعلق بتطبيقاتها.

أيضًا؛ ذكر عدد من الأمور، وفرق بينها وبين التدبر، أو جعلت مراحل من مراحل التدبر، كالتأثر ونحوها، وفي نظري أن هذه الأمور إنما هي نتائج للتدبر؛ فالتأثر نتيجة من نتائج التدبر، والاستنباط نتيجة من نتائج التدبر..

ثالثًا: إن التدبر عند المفسرين ينبغي أن يذكر في ضمنه الأمور المعينة على التدبر، إذا أردنا أن نبحثه بصفة عامة، أن نذكر مؤيداته، وأن نذكر عوائقه، وهذا أمر مهم.

بقي الفرق بين التدبر والاستنباط، وقد أجاد الشيخ فهد حفظه الله تعالى في بيان هذا الفرق، غير أني ربما أضيف بعض الأشياء، فالذي يبدو من حيث الدلالة اللفظية بين التدبر وبين الاستنباط:

أولًا: التدبر يعنى في الغالب بالأمور الظاهرة، ولهذا دُعي إليه جميع الناس؛ لأنه أمر واضح، وكان عامًّا، بينما الاستنباط هو استخراج المعاني الخفية؛ فهذا تفريق من حيث المعنى اللغوي..

ثانيًا: من حيث المخاطب به؛ فالتدبر خوطب به جميع الناس، بينما الاستنباط إنما هو لأهل العلم.

وثالثًا: من حيث الشروط والضوابط؛ فالتدبر لم يشترط فيه شروط للتدبر، بينما الاستنباط يحتاج إلى شروط وإلى ضوابط معينة يذكرها العلماء في كتبهم.

رابعًا: من حيث الشمول؛ لو أردنا أن نؤصل ذلك نقول: إن النسبة بين التدبر والاستنباط هي العموم والخصوص المطلق، وهذا أشار إليه الأخ فهد في ورقته.

خامسًا: من حيث الغاية من كل منهما؛ فالغاية من التدبر هي الاتعاظ والاعتبار، والغاية من الاستنباط هي بيان الأحكام وما أشبهه من الفوائد.

بقي نقطة أشار إليها الأستاذ الدكتور الشايع ، وهي مسألة: حكم التدبر، وقد أشار الطبري والقرطبي إلى وجوب التدبر، وهذا قد ذكره الدكتور.

وأيضًا بقية نقطة؛ وهي ما أثاره الدكتور عويض في أنه لماذا لم يبحث التدبر عند العلماء السابقين؟ والدكتور الشايع أتى على شيء من ذلك، وأرى أن هناك سببًا آخر غير ما ذُكر، وهو أن التدبر يختص بالإنسان في خاصة نفسه، حيث يتدبر فيزداد إيمانه، ويحصل له الإيمان وما أشبه ذلك، ولهذا لم يعنى به العلماء كثيرًا لأنه ليس متعديًّا في نفسه، وإنما هو وسيلة إلى أمور ربما يكون متعديًّا إليها، فيحصل للإنسان التدبر والتأثر، ويحصل له العلم والمعرفة، ونحو ذلك، بينما عني العلماء بما كان له تعدٍّ كالاجتهاد، والاستنباط، وغيره، لأنه يؤدي إلى استخراج الأحكام، هذا والله تعالى أعلم، وجزاكم الله خيرًا..

obeikandl.com

obeikandl.com

د. محمد بن حسين الجيزاني

المداخلة الثانية

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله..

في البداية أتقدم بالشكر الجزيل للقائمين على هذا الملتقى، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك في موازين حسناتهم..

في البداية أؤيد ما ذكره الشيخ فهد أن التدبر باقٍ على معناه اللغوي، فلا حاجة إلى البحث والتنقيب عن معنى شرعي جديدٍ له؛ لذلك ينبغي أن يقتصر في معنى التدبر على المعنى اللغوي، وما ذكره المفسرون هو المعنى اللغوي نفسه.

أقول: إن هذا الملتقى ملتقى مبارك، وإننا إذا خرجنا بنتيجة عريضة، وعنوان كبير لهذا الملتقى؛ فهو من أجل أن نصل إلى نتيجة كبرى وهي: (إن تدبر القرآن الكريم مقصد من مقاصد إنزال القرآن)، فإذا ثبت أنه مقصد؛ فينبغي أن يتوصل إليه ويتوسل إليه بوسائل شتى.

إن تدبر القرآن طريقة راقية للوعظ والتذكير، والنصيحة والتوجيه، فبدلاً من أن توجه بعض الناس وتعظه وتذكره، فلو أنك فتحت له باب تدبر القرآن لتغيرت أحواله، به يزداد إيمان المؤمن، وبه يحصل على درجة عالية من التقوى واليقين، وبه

obeikandl.com

يتوب العاصي، وبه يؤوب الكافر ويسلم.

وهذا المقصد له وسائل، ولذلك أنا أقترح أن يكون الملتقى القادم في الوسائل بطريقة احترافية، وأن ننتقل بعد تحرير المصطلحات المتعلقة بالتدبر، الذي كان هو موضوع هذا الملتقى للبحث بطريقة معاصرة في الوسائل الممكنة المجدية النافعة لنشر شعيرة التدبر لدى أكبر شريحة من المسلمين، كما هو هدف هذا المركز..

أريد أن أختم بأن مقاصد الشريعة الإسلامية إذا عُرِّفَتْ وأُظْهِرَتْ فإنها تعين على التدبر كثيرًا؛ (حفظ: الدين، والعقل، والنفس، والنسل، والمال)، ونحن إذا تأملنا القرآن؛ فإن آياته كلها تدور حول هذه الكليات الخمس بالحفظ والعناية وجودًا وعدمًا..

هذا ما تيسر، وجزاكم الله خيرًا..

openkandil.com

د. عمر بن عبدالله المقبل

المداخلة الثالثة

فيما يتعلق بتساؤل الدكتور عويض..

ربما يكون عدم التصنيف في التدبر استقلالاً هو كغيره من الفنون التي لم تصنف إلا في القرون المتأخرة، فكما لم يحتاج الناس إلى التصنيف مثلاً في كتب السنة والرواية في القرن الثاني، فكذلك لم يحتاجوا إلى التصنيف استقلالاً إلا إذا وجدت حاجة، مع أن كلامهم مبثوث، ومَن قرأ مقدمة الطبري، ومقدمة القرطبي، وكلام أهل العلم كابن القيم وابن تيمية وغيرهم من العلماء وجد أن كلامهم في العناية بالتدبر والتأكيد عليه مبثوث في كتبهم..

هذه لعلها يمكن أن تضاف لما تقدم به أصحاب الفضيلة..

تعليق آخر على ما يتعلق بتسمية السورة.. سأطرح أسئلة ويمكن أن يتكرم الشيخ مساعد بالإجابة عنها:

ألا يمكن أن يفرق بين السورة التي لم يرد لها إلا اسم واحد، وبين السورة التي ورد لها أكثر من اسم؟

سؤال آخر: ماذا يعني مثلاً أن يسمي النبي ﷺ سورة البقرة انطلاقًا من قصة

obeikandl.com

البقرة وتشتهر بهذا الاسم، مع أن في سورة البقرة قَطْعًا آيات أعظم من هذه القصة، كآية الكرسي وغيرها؛ فلماذا؟

هذه أسئلة لعلها تفتح النقاش في هذه القضية..

obeikandl.com

د. هاشم الأهدل

المداخلة الرابعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

مداخلتي على أستاذ التفسير الدكتور مساعد، لكن للتنبيه، ولست من أهل التفسير، ولكني أتشبه بهم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

ذكر الشيخ في ورقته أن التعامل مع القرآن خمسة مراتب: القراءة أو التلاوة، التفسير (فهم المعنى المراد)، التدبر (بمعنى التفكر)، التأثر (بمعنى الاعتبار والاتعاظ)، ثم العمل به (كالتحاكم إليه أو الاستشفاء به.. وغير ذلك).

أقول: أيها الإخوة.. أيها الفضلاء.. إن الواقع العملي والسلوكي يؤكد هذا التقسيم؛ فنحن ولله الحمد في جمعيات تحفيظ القرآن الكريم، طلابنا وأبناءنا يحفظون كتاب الله عز وجل وبهذا يكون قد حققوا المرحلة الأولى والمستوى الأول وهو القراءة أو التلاوة، وقد نجحت ولله الحمد هذه الجمعيات نجاحًا كبيرًا في تحقيق هذا المطلب، وإن كنا نأمل المزيد؛ لكن المستوى الثاني وهو التفسير (فهم المعنى المراد)،

obeikandl.com

برأيي وحسب تجربتي القاصرة لم يصل إليه كثير من الطلاب المتخرجين الحفاظ لكتاب الله عز وجل، فلو أجرى أحدكم تجربة شخصية، وسأل بعض الحفاظ عن آية (غاسق إذا وقب)، أو (لابثين فيها أحقابًا)، أو غير ذلك لربما لم يجد الحافظ جوابًا، ولم يستطع أن يجيب إجابة صحيحة، فلذلك نحن نؤكد مرة أخرى على أهمية أن نصل بالطلاب إلى المرحلة الثانية وهي التعلم للمعاني من أجل أن يصلوا إلى المطلوب.

ولعله يمكن البحث في هذه المستويات، وتزود بدلائل وشواهد من أحوال السلف، ففي أحوال السلف وقصصهم وسيرهم ما يؤكد طريقة تدبرهم للقرآن، ولذلك أقترح أن يكون هناك توصيات، وأن تكون هناك بحوث في دلائل وشواهد من تعامل السلف مع هذه المستويات الخمسة وإن كانت مبثوثة، وربما بعضها جمع؛ لكن لعل التركيز عليها يكون أحسن، أتمنى أن أكون وفقت في توضيح الفكرة، ولم تقصر بي العبارة، أو أتأثر باسم هذه القاعة فتكون عباراتي مقصورة.

obeikandl.com

د. عبدالله عبدالغني سرحان

المداخلة الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم

أشكر الأخوين الكريمين الدكتور/ مساعد بن سليمان الطيار، والدكتور/ فهد بن مبارك الوهبي، على ورقتي العمل اللتين قدماها، ولقد أفدت كثيرًا مما استمعت إليه، ولكن لي مداخلتان سريعتان، فأرجو أن تسمح لي المنصة الكريمة ببعض الوقت..

المداخلة الأولى: ذكر الدكتور مساعد أن آيات التدبر وردت في سياق الحديث عن الكفار، ثم قال: ولا بأس بتنزيلها على حال المؤمنين..

أقول: هذا حق؛ ولكن أيضًا فآيات التدبر لم تنزل بالكفار بوجه عام، بل وردت آيتان في الحديث عن المنافقين الذين توعدهم الله عز وجل بالدرك الأسفل من النار، في سورة النساء وسورة محمد، ففيهما خطاب للمنافقين في المدينة؛ لأن السورتين مدنيتان، وآية واحدة وردت عن كفار قريش في سورة المؤمنون، وفرق واضح جدًّا بين المنافقين والكفار كما هو معلوم، والآية الأخيرة محتملة والتي وردت في سورة (ص)، ولذلك سألقي الضوء سريعًا على هذه الآيات الأربع؛ فأقول: لم يرد مصطلح

obeikandl.com

التدبر ذاته مطلقًا في القرآن الكريم بهذه الصفة، بل وردت صيغ أخرى من مادة (د ب ر) في الذكر الحكيم ومما نحن فيه، ورد الفعل المضارع المتصل به واو الجماعة (يتدبرون) من الفعل الماضي الخماسي (تدبر) مرتين، في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، والخطاب في آية النساء موجه للمنافقين الذين يتحدث السياق القرآني عنهم، قبل هذه الآية، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ استفهام إنكاري، ينكر عليهم عزوفهم عن القرآن وعن قراءته بتدبر وأناة، والخطاب في آية سورة محمد، موجه للمنافقين الذين يتحدث السياق القرآني عنهم قبل هذه الآية أيضًا، والمراد بالقرآن في سورة النساء وسورة محمد القرآن كله، حيث جاء معرفًا بـ(أل) التي تفيد (الاستغراق)، نصل من ذلك إلى أن الذي لا يتدبر القرآن كله هو المنافق؛ لأن الآيتين وردتا في المنافقين، وأن المتدبر له كله هو المؤمن، هذا بمفهوم المخالفة، وأن المتدبر هو القرآن كله، مسموعًا أو مقروءًا، فمعنا إذًا مصطلحان قرآنيان مستنبطان من هاتين الآيتين: المُتدبِّر؛ وهو(المؤمن)، والمتدَبَّر؛ (وهو القرآن).

ونستنتج من ذلك أيضًا أن مَن تدبر القرآن يصل إلى نتيجة فحواها أن القرآن كله كلام الله ليس فيه اختلاف البتة؛ لأنه لو كان من عند غير الله لوجد المتدبر فيه اختلافًا، فلما لم يجد المتدبر فيه اختلافًا ثبت أن القرآن من عند الله، فمن أراد من المنافقين والكفار أن يقف على تلك الحقيقة عليهم أن يقرؤوا القرآن كله بتدبر، أما القراءة السريعة والهذ والهذرمة التي لا تأمل فيها فلم توصل إلى تلك النتيجة.

كما يلاحظ أن سورة محمد قد أشارت إلى أن آلة التدبر هي القلوب المفتوحة، أم

القلوب المغلقة القاسية التي كأنها مكبلة بالأغلال والأقفال الحديدية لا ينفذ إليها نور الإيمان ونور القرآن.

أما الآية الثالثة؛ فوردت كذلك بالفعل المضارع (يدبروا)، من الماضي الخماسي (تدبروا)، على اختلاف في القراءات، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، والخطاب فيها كما هو واضح في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٧]، حيث كان كفار مكة يسمرون ويسمون القرآن بالهجر، ويقولون: إنه سحر وشعر وكهانة، فالخطاب لكفار مكة، والاستفهام في قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ استفهام توبيخي إنكاري، ينعى عليهم أنه لو تدبروه لصدَّقوا بما فيه، وعلموا أنه كلام رب العالمين، وعبر هنا عن القرآن بالقول؛ لأنهم يسمعونه مقولاً، ولا يقرؤونه قراءةً، وهو تعبير دقيق في هذا السياق.

نستنتج من هذا أن كفار قريش لم يكونوا من المتدبرين في القرآن، وبمفهوم المخالفة -كما يقول الأصوليون- يكون المؤمنون هم المتدبرون، والمتدبَّر هو القول المراد به هنا القرآن الكريم أيضًا.

أما الآية: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، فالواو ليدبروا وهو واو الجماعة، فقد تعود إلى المؤمنين، وأنا أرى هذا كما هو بين من السياق السابق، والمفعول الواقع عليه التدبر هو آيات الكتاب، وهذه ملاحظة كانت في الجلسة الأولى، حيث ذكر بعض الإخوة أن الآيات للمنظور والمسطور، ولكن الضمير في آياته يعود على الكتاب، وهذا نص واضح وصريح أن التدبر في آيات الكتاب، وهذه لفتة رائعة ومفارقة دقيقة: (المؤمنون يتدبرون في المكتوب نصًّا ويتدبرون في المقروء والمسموع بالفحوى)، لأن مَن يتأمل يجد أن التدبر

في المكتوب جاء في آية واحدة في سورة (ص)، والتدبر في القرآن جاء في آيتين (النساء، ومحمد)، والتدبر في القول ورد في آية (المؤمنون)، وكأن الذكر الحكيم جعل التدبر في المقروء المسموع أكثر، هذا شيء بدهي وطبيعي؛ لأن مَن يحسن سماعًا يحسن فهمًا، وتعقلاً واستجابةً، أما المقيد المكتوب، فإن المرء لو لم يتدبره من المرة الأولى فسيعود إليه مرة بعد أخرى، ولن يتفلت منه، لأنه مقيد مكتوب..

وهكذا يلوح لنا أن الذكر الحكيم يقصر التدبر على شيئين: (القرآن مقروءًا ومقولاً، والقرآن مكتوبًا)، وما دام أن القرآن هو منطلقنا في تحرير وتأصيل المصطلحات فالذي يتناهى مع ذلك أن يكون التدبر مقصورًا على القرآن مكتوبًا ومسموعًا، ومتابعة للذكر الحكيم لا يصح أن يطلق مصطلح التدبر على التفكر في الكون والنفس الإنسانية؛ لأن القرآن لم يطلق عليه ذلك، بل أطلق عليه عبارات أخرى مثل: التفكر، والتذكر، والنظر، والاعتبار، كما سيأتي.

وما جاء على أئمتنا في كتب التراث إنما هو من قبيل التسامح في العبارة فحسب، وليس هذا من مصطلحات القرآن الكريم.

وأخيرًا؛ مما ينبغي الإشارة إليه، فكما أن التدبر يكون في القرآن الكريم رسمًا وخطًّا وكتابةً وقراءةً وسماعًا، يكون التدبر كذلك في الحديث الشريف كتابة وقراءةً وسماعًا، كذلك الحال في علوم المسلمين المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وكلام العرب كله شعره ونثره، وهكذا نتوسع بالتدبر إلى جميع آفاقه ومجالاته الرحبة، وليس هذا منا ابتعادًا عمَّا أصَّلناه من قبل؛ ولكنه قياس عليه، وهو قياس صحيح إن شاء الله.

openkanal.com

د. شايع الأسمري

المداخلة السادسة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين.

أبدأ ببحث الدكتور مساعد، فقد ذكر مقاصد السور، وكأني فهمت من كلامه أن المتأخرين أجادوا في ذكر مقاصد السور، وأقول: إن المتقدمين نسبيًّا اجتهدوا في هذا الأمر، منهم (الفيروزآبادي) عليه رحمة الله في «بصائر ذوي التمييز»؛ فإنه قد أجاد إجادة طيبة، ولا أظن سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وابن عاشور إلا أنهما قد اطلعا على هذا الكتاب الجيد، وكذلك البقاعي في «نظم الدرر»، هو يذكر شيئًا من هذا، فنعيد المسألة، بين أصحابها في الأصل، وإن كان المتأخرون قد أفادوا في هذا الموضوع.

أما ما يتعلق ببحث الدكتور فهد جزاه الله خيرًا؛ فهناك مسألة أؤكد عليها - وقد سبقني إليها الدكتور الفاضل الشايع-، وهي مسألة أن يذكر الزمخشري عشرين مرة في بحثه، وهو عشرين صفحة، ولا يذكر ابن عباس، ولا عبد الله بن عمر ولا العبادلة ولا الصحابة ولا التابعين، هذه مسألة فيها نظر يا أحباب، وقد علمنا شيخنا الدكتور/ حكمة بشير أنه لا يكفي أن أقول: (قال الحسن)، (قال ابن عباس)، بل نرجع إلى السنة، والمفسر يعرف الحديث، ويعرف الفقه وأصوله، وأما الانفصالية

obeikandl.com

بين التفسير وبقية العلوم لا نؤيدها، ولا أحد يؤيدها، ولا يمكن أن يقول أحد: أنا لا أعرف في هذا العلم، إنما أنا مفسر ولست محدثًا.

نرجع أيضًا إلى كتب أهل الحديث، وما من أثر إلا وتقريبًا قد حكم عليه العلماء، جزاهم الله خيرًا؛ فأنا أرجوا في الأبحاث المستقبلة أن نرجع إلى منابع التفسير الأصلية.

أخيرًا؛ في تفسير سورة محمد: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، ذكرت الآية وكأنها فقط في المشركين، نعم الآية لا شك أنها تشمل المشركين؛ لكن سياق الآية ما قبلها وما بعدها يدل أنها في المنافقين، فاذكر المنافقين، ثم اذكر مَن شئت.

المسألة الأخرى وأختم بها: مسألة وفيات العلماء؛ فابن عطية مثلاً توفي سنة ٤٨١ هـ، وكذلك الشيخ عبد الرحمن السعدي عليه رحمة الله مات سنة ١٣٦٧هـ، أيضًا الجرجاني سنة ٨١٦هـ، فلا نتساهل في عدم ذكرها، بارك الله في الجميع، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

د. عويض العطوي

المداخلة السابعة

عندي قضية منهجية بحتة، فالموضوع عندنا هو: (مفهوم التدبر تحرير وتأصيل)، طبعًا أنا عتبي على شيخنا الكريم د. مساعد الطيار، فالموضوع الذي طرح ليس في (مفهوم التدبر تحرير وتأصيل)، وإن كان الذي طرح موضوع رائع جدًّا، لكن ممكن أن نقول: إن موقعه غير اليوم، ولذلك كنت أتمنى من القضايا ومن المداخلات أن تنصب في قضية واحدة نحن جئنا لأجلها.. **هذا الأمر الأول.**

الأمر الثاني: أنا أيضًا عندي سؤال له أهمية كبير جدًّا في قضية التدبر: ما هو الدليل على أن التدبر في آيات من القرآن دون غيرها؟ مَن الذي يخرج أي آيات حتى آيات العقائد من قضية التدبر؟ نحن لا نتكلم عن التأويل، نحن نتكلم عن التدبر، وأنا متأكد أننا لو حررنا سنجد آيات تحدث عنها ابن القيم وابن تيمية فيها قضايا تخص الآخرة والغيبيات.

القضية: نحن نحتاج إلى دليل إخراج جزء من القرآن لا يدخل فيه التدبر، أنا في نظري أن هذا الأمر يحتاج إلى نظر معين.

أقول: ملحوظة الأستاذ د. فهد، حَرِيَّة بأن يهتم بها، وهي قضية ورود آية

obeikandl.com

الاستنباط بعد آية التدبر، أنا أقول: إنه يحتاج إلى اهتمام في هذه القضية.

أخيرًا: فإني لاحظت ملحوظة لعلها من التدبر، لاحظت أن كليات المعلمين استحوذت على اللقاءات الثلاثة الأولى، ولاحظت أن تبوك ذكرت مرتين، وفي الكتاب الذي ذكره الدكتور «الرسالة التبوكية» وهي (زاد المهاجر) أيضًا ثلاث مرات، لعل هذا من الموافقات الطيبة.

هذا؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

obeikandl.com

د. محمد عبدالله جابر

المداخلة الثامنة

نتجاوز الثناء اختصارًا..

قضية أن التدبر يتعلق بالأصول العظيمة والمسائل الكبيرة، مما تكرر ذكرها، ولعلها تكون من أهم الأمور التي -من وجهة نظري- تحتاج إلى اهتمام، خاصة في (جوال تدبر)؛ لأني أتصور أن أكثر الرسائل التي ترسل في هذا الموضوع دقائق ولطائف، فيحتاج الأمر إلى إعادة نظر في هذا الباب.

الأمر الآخر: لعله قد يفهم ولا أظنه مرادًا لبعض المشايخ أن العمل هو الذي ينبغي أن نهتم به، وأما التنظير فهو سبب الانصراف... قد يفهم من هذا أن مثل هذا الاجتماع يدخل في ما حذروا منه، وأنا أؤكد أن هذا التحرير والتنظير من العمل، بل إن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكد على أن معرفة حدود ما أنزل الله من أهم الأشياء التي تجب على المسلم، فتحديد معنى التدبر هو منطلق للعمل بعد ذلك، فلعل هذه القضية تكون في الحسبان.

نسأل الله أن يوفق الجميع لما يحب ويرضى..

في قضية التدبر أوقفتني قضية وهي: لماذا لم يذكر تدبر القرآن في السنة؟ حاولت

obeikandl.com

أن أتذكر كثيرًا وأتأمل حسب ما أعرف لم أذكر حديثًا فيه لفظ تدبر القرآن، فهذه المسألة تحتاج إلى نظر حتى يحرر هذا المصطلح والله أعلم..

obeikandl.com

د. إبراهيم الحميضي

المداخلة التاسعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أشكر الإخوة المنظمين والداعمين، وأعضاء الملتقى، والمشاركين.

أنا في الحقيقة في رأيي القاصر أنه ليست مشكلة الناس اليوم تحرير معنى التدبر والفرق بينه وبين الاستنباط، ولِمَ لَمْ يؤلف فيه المتقدمون، فنحن فيما تبقَّى بحاجة أكثر إلى أساليب عملية للتدبر، سواءً من خلال (جوال تدبر)، أو من خلال الملتقى القادم..

وحتى لا نطيل في هذه المسألة، فقد أشار شيخنا الدكتور سعود إلى قضية الحفظ، وأنه ليس المراد تحفيظ الطلاب فقط، وأن المشاهد فعلاً أن جماعات التحفيظ المنتشرة، وحلق التحفيظ، لم تؤثر كثيرًا في أخلاق الطلاب وآدابهم، ولذلك هناك دعوات إلى أن تقتصر هذه الحلق على التلاوة فقط.

فأقول: ليست المشكلة في الحفظ، وأنهم لم يُدرسوا معاني القرآن، بل المشكلة في المحفظ أو المدرس، وإلا في رأيي لو اقتصر على التحفيظ؛ لكن من مدرس قد

obeikandi.com

وفق وأخلص وعمل وفهم فإنه سيؤثر تأثيرًا كبيرًا؛ لكن المشكلة إذا كان المعلم أصلاً غير متربي وغير متأدب! ومن هنا أُتينا، وأذكر بالمناسبة أننا قرأنا على الدكتور/ سيد الشنقيطي –حفظه الله– فترة بسيطة، ولكن كان لها أثر كبير علينا، وهو أكثر مَن أثر فينا، وذلك لما نحسبه فيه من الإخلاص والتقوى، بالإضافة إلى الكلمات التي يلقيها على الطالب كلما قرأ عليه، فإذا مر بآية فيها ذكر المتقين، قال: جعلنا الله وإياكم من المتقين، وإذا جاء ذكر المحسنين؛ قال: جعلنا الله وإياكم من المحسنين، وإذا جاء ذكر النار؛ قال: أجارنا الله وإياكم من النار، وإذا جاء ذكر الجنة؛ قال: أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها..

فكانت مثل هذه الكلمات إلى ما يتصف به من الحزم لها أثر كبير، فأنا أقول: بقاء الحفظ في الحلقات والتركيز عليه في السنين المبكرة وتأخير الاستنباط والتفسير إلى السن المتأخرة، ليس هو المشكلة بل العناية بالمدرس الكفؤ، فهذه القضية التي نحتاجها، ولكم جزيل الشكر..

openkandil.com

الشيخ/ نايف بن سعيد الزهراني

المداخلة العاشرة

أنا أقترح أن نجعل التدبر وسطًا بين الورقتين؛ لأن في ورقة الشيخ مساعد فيه توسيع لمعنى التدبر، حتى أدخل فيه التفسير، ونحن قد استقر عندنا في المعنى اللغوي ما قرره الشيخ فهد في المعنى الاصطلاحي من أن التدبر يحتاج إلى نوع تعقل وتفكر، وليست كل معاني الآيات تحتاج إلى ذلك، كـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١] وغيرها من الآيات.. فهذا فيه توسيع لمعنى التدبر، في المقابل يوجد قيود كثيرة ذكرها الشيخ فهد: التدبر مبني على معرفة التفسير، كذلك مرهونة بسلامة القلب، وما إلى ذلك.. فنحو هذه القيود تقيد الإطلاق العام الذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢]، بحيث أننا نجد في بعض المواقف تدبرًا لا تنطبق عليه هذه الشروط، ومع ذلك فهو صحيح مقبول، وصاحبه امتثل أمر الله عز وجل في هذه الآية.

واقتراح أخير.. ولعل المشايخ أصحاب الورقتين يتفضلون ببيانه، لماذا لا يكون التدبر على مستويات أو مراتب، بحيث أن هناك نوع من التدبر حق مباح لكل من سمع آية أو قرأها، ونوع من التدبر آخر لا يحل إلا لمن قام بشرطه، وقد يكون هذا ما عبر عنه الشيخ بالاستنباط.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

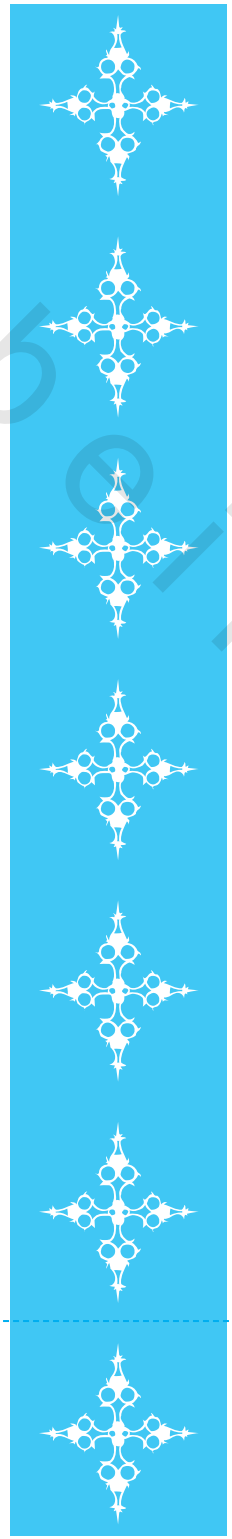

الجلسة الثالثة :

التدبُّر عند المفسرين ٢

الورقة الأولى:

مفهوم التدبُّر

(تحرير وتأصيل)

د. خالد بن عثمان السبت

الورقة الثانية:

مفهوم التدبُّر في ضوء

القرآن والسنة والآثار

د. محمد بن عبدالله الربيعة

obeikandl.com

الورقة الأولى:

د. خالد بن عثمان السبت

مفهوم التدبُّر (تحرير وتأصيل)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن هذه الورقة ستتناول أربعة محاور:

الأول: تحرير مصطلح التدبر؛ وذلك من أربعة جوانب:

١- في بيان أصل معنى العام التدبر في كلام العرب.

٢- في بيان المعنى العام للتدبر (المعنى الاصطلاحي، العرفي).

٣- في معنى تدبر القرآن خاصة.

٤- في ذكر بعض عبارات المفسرين في معنى التدبر.

الثاني: علاقة التدبر في بعض المصطلحات القرآنية الأُخرى.

الثالث: أركان التدبر.

الرابع: أنواع التدبر.

والله أسأل التسديد والتوفيق.

obeikandl.com

* المحور الأول: تحرير مصطلح التدبر:

١ - أصل معنى التدبر في كلام العرب:

التَّدَبُّر: مصدر(تَدَبَّر)، وأصل هذه المادة (د ب ر) يدل على آخر الشيء وخَلْفِه[١].

يقال: دبر السهم الهدف: سقط خلفه، ودبر فلان القوم: صار خلفهم[٢].

وقد اشتقوا من (الدُّبُر) فعلاً، فقالوا: تدبر: إذا نظر في دُبُر الأمر، أي: في غائبه أو عاقبته[٣].

فهو من الأفعال التي اشتُقت من الأسماء الجامدة[٤].

ودُبُر كل شيء: عَقِبُه ومُؤَخَّرُه.

ومنه (الدُّبُر) خلاف القُبُل.

وفي الحديث: «لا تدابروا»، وذلك أن يترك كل واحد منهما الإقبال على صاحبه بوجهه[٥].

أي: لا يولي بعضكم بعضًا دبره[٦].

قال أبو عبيد: التدابر: المصارمة والهجران، مأخوذ من أن يولي الرجل صاحبه دُبُره وقفاه، ويعرض عنه بوجهه ويهجره[٧].

---

(١) المقاييس (٢/ ٣٢٤) (كتاب الدال، باب الدال والباء وما يثلثهما) (مادة: دبر).

(٢) المفردات (ص ٣٠٧) (مادة: دبر).

(٣) معاني القرآن للزجاج (٢ / ٨٢)، البغوي (٢/ ٢٥٤)، الكشاف (١/ ٢٨٤).

(٤) ابن عاشور (٣/ ٤٨٣).

(٥) المقاييس (٢/ ٣٢٤) (كتاب الدال، باب الدال والباء وما يثلثهما) (مادة: دبر).

(٦) الزجاج (٢/ ٨٢)، القرطبي (٥/ ٢٩٠).

(٧) تاج العروس (١/ ٢٨١٣) (فصل: الدال من باب الراء) (مادة: دبر).

obeikandl.com

ويقال: أدبر القوم: مضى أمرهم إلى آخره[١].

ودبر القوم يدبرون دبارًا إذا هلكوا[٢].

ودَبِرَ البعير دَبَرًا، فهو أدبر: صار بِقَرْحِه دَبِرًا، أي: متأخرًا[٣].

ومنه: دُبُر الشهر: آخره.

ودابر الشيء: آخره.

ودُبُر الأمر: آخره.

و الدَّبَار: الهلاك الذي يقطع دابرتهم[٤].

يقال: فلان ما يدري قِبَالَ الأمر من دِبَارِه. أي: أوَّلَه من آخره.

ومن ذلك: {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} (٤٠) سورة ق؛ أي: أواخر الصلوات[٥].

ومنه قيل للنحل: (الدَّبْر)؛ لأنه يُعْقِب ما يُنتفع به[٦]، أو لأن سلاحها في أدبارها[٧].

وهكذا قيل للمال الكثير:(الدِّبْر) لأنه يبقى للأعقاب[٨].

ويقال: دَبَّر الأمر وتَدَبَّره: أي: نظر وتفكر في عاقبته[٩].

---

(١) القرطبي (٥/ ٩٥٠).

(٢) الزجاج (٢/ ٨٢).

(٣) المفردات (٣٠٨) (مادة: دبر).

(٤) السابق (٣٠٧) (مادة: دبر).

(٥) السابق (ص ٣٠٧) (مادة: دبر).

(٦) الزجاج (٢/ ٨٢).

(٧) المفردات (٣٠٨) (مادة: دبر).

(٨) الزجاج (٢/ ٨٢).

(٩) الكشاف (١/ ٢٨٤)، القرطبي (٥/ ٢٩٠)، الخازن (٢/ ١٣٧)، نظم الدرر (٢/ ٢٣٨).

obeikandi.com

ويقال: اسْتَدْبَرَه: أي: رأى في عاقبته ما لم يره في صدره[١].

ويقال: عرف الأمر تَدَبُّرًا: أي بأَخَرَة.

ومنه قول جرير:

ولا تتقون الشر حتى يصيبكم ولا تعرفون الأمر إلا تَدَبُّرا

وقال أكثم بن صيفي لبنيه: يا بَنِيَّ لا تَتَدَبَّروا أعجاز أمور قد ولَّت صُدُورُها[٢].

والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته[٣].

فهو بمعنى التفكير في دُبُر الأمور[٤].

وذلك بأن يُدَبِّر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته[٥].

ولذا قيل: هو النظر في العواقب بمعرفة الخير، أو: إجراء الأمور على علم العواقب[٦].

والتدبير: عتق العبد عن دُبُر، وهو أن يقول له: أنت حر بعد موتي[٧].

ويقال له: مُدَبَّر.

(١) تاج العروس (١/ ٢٨١٣) (فصل: الدال من باب الراء) (مادة: دبر).

(٢) تفسير الرازي (٥/ ٣٠٠)، تفسير النيسابوري (٣/ ٣٦)، اللسان (٤/ ٢٧٣)، تاج العروس (١/ ٢٨١٣).

(٣) اللسان (٤/ ٢٧٣) (مادة: دبر)، تاج العروس (١/ ٢٨١٣) (فصل: الدال من باب الراء) (مادة: دبر)، مختار الصحاح (باب الراء، فصل الدال) (مادة: دبر) (ص ١٥٣).

(٤) المفردات (٣٠٧).

(٥) فتح القدير (٢/ ١٨٠).

(٦) التعريفات (١/ ١٧).

(٧) المفردات (٣٠٧) (مادة: دبر)، التعريفات (١/ ١٧)، تاج العروس (١/ ٢٨١٣) (فصل الدال من باب الراء) (مادة: دبر).

obeikandl.com

ويقال: إن فلانًا لو استقبل في أمره ما استدبره لَهُدي لِوَجْهَةِ أمرِه؛ أي: لو علم في بَدْءِ أمرِه ما عَلِمَه في آخره لاسترشد لأمره[١].

ومما تقدم يعلم أن أصل التدبر: التأمل والتفكر في أدبار الأمور وعواقبها؛ أي: فيما لا يظهر منها للمتأمل بادئ ذي بدء[٢].

ثم استُعمل في كل تأمل[٣]، سواءً كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه[٤].

٢- بيان المعنى العام للتدبر:

التدبر في الأمر: التفكير فيه[٥]، أي: تحصيل المعرفتين لتحصيل معرفة ثالثة[٦].

وهو بمعنى قول بعضهم: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نُصبت له[٧].

أي: تصرف القلب بالنظر في الدلائل[٨].

وهذا تفسير له بالتفكر.

وبعضهم يفرق بينهما باعتبار أن التدبر: تصرف القلب بالنظر في العواقب، وأما

---

(١) اللسان (٤/ ٢٧٣)، تاج العروس (١/ ٢٨١٣).

(٢) الرازي (٥/ ٣٠٠)، الخازن (٢/ ١٣٧) (٥/ ٤٢٧)، تفسير النيسابوري (٣/ ٣٦)، الألوسي (٤/ ١٥٠)، ابن عاشور (٩/ ٣٨٥) (١٣/ ٤٢٣).

(٣) الكشاف (١/ ٢٨٤)، الخازن (٢/ ١٣٧)، فتح القدير (٢/ ١٨٠)، الألوسي (٤/ ١٥٠).

(٤) الألوسي (٤/ ١٥٠).

(٥) اللسان (٤/ ٢٧٣)، مختار الصحاح.

(٦) تاج العروس (١/ ٢٨١٣).

(٧) ابن عاشور (٩/ ٣٨٥).

(٨) الكليات (٢٨٧).

التفكر: فتصرفه بالنظر في الدليل[١].

و عبَّر عنه بعضهم بأنه التفكر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه أمره[٢].

وهو بمعنى قول مَن فسره بالنظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء[٣].

وهما تعريفان مقاربان، والله أعلم.

٣- معنى تدبر القرآن خاصة (المعنى الشرعي):

هناك تعريفات متعددة للتدبر وبينها تقارب، فمن ذلك:

- قال مقاتل بن سليمان: هو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك[٤].

- وقال الزمخشري: هو تأمل معانيه وتبصر ما فيه[٥].

وقال: وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يَدْبُر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل مَن له لقحه دَرُور لا يحلبها، ومهرة نَتُور لا يستولدها[٦].

- وقال القرطبي: هو التفكر فيه وفي معانيه[٧].

- وقال الخازن: هو تأمل معانيه، وتفكر في حكمه، وتبصر ما فيه من

---

(١) التعريفات (١/ ١٧).

(٢) الخازن (٥/ ٤٢٧).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ١٦١)، التعريفات (١/ ١٧).

(٤) تفسير مقاتل (١/ ٣٣٥)، وهو الذي قاله السعدي بحروفه (١/ ١٨٩).

(٥) الكشاف (١/ ٢٨٤).

(٦) السابق (٣/ ٣٢٧).

(٧) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٠).

الآيات[1].

- وقال أبو حيان: هو التفكر في الآيات، والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء[2].

- وقال ابن القيم: هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله[3].

- وقال السيوطي: وصفة ذلك: أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان مما قصَّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب[4].

- وقال ابن عاشور: هو تعقب ظواهر الألفاظ ليعلم ما يَدْبُر ظواهرها من المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة[5].

- وقال الميداني: هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة.

- وقيل: هو التفكر والتأمل لآيات القرآن من أجل فهمه، وإدراك معانيه، وحِكَمه، والمراد منه.

- وقيل: هو تفهم معاني ألفاظه، والتفكر فيما تدل عليه آياته مطابقة، وما دخل

(١) تفسير الخازن (٢/ ١٣٧).
(٢) البحر المحيط (٩/ ٣٣٨).
(٣) المدارج (١/ ٤٥١).
(٤) الإتقان (١/ ٣٠٠).
(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢١).

obeikandl.com

في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به مما لم يُعَرِّج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بذلك بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه.

ويجمع ذلك: النظر إلى ما وراء الألفاظ من المعاني والعبر والمقاصد، الأمر الذي يثمر العلوم النافعة والأعمال الزاكية.

وإنما ذكرت هذه الجملة الأخيرة لأنه قد ورد عن جماعة من السلف تفسير التدبر بالعمل والامتثال وما إلى ذلك مما يقع في القلب ويظهر على الجوارح.

ولا ريب أن هذا يكون أعلى مراتب التدبر، وإلا فقد يحصل ببعض ذلك كما لا يخفى.

٤- ذكر بعض عبارات المفسرين في معنى التدبر:

من عبارات المفسرين في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (٨٢) سورة النساء، (٢٤) سورة محمد.

وقوله: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (٢٩) سورة ص.

- ابن جرير: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله..

- البغوي: أفلا يتفكرون في القرآن[1].

- ابن الجوزي: ليتفكروا فيها[2].

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٥٤).

(٢) زاد المسير (٥/ ٢٣٨).

obeikandl.com

- القرطبي: أي: يتفهمونه[١].

- الخازن: يتفكرون فيه وفي مواعظه وزواجره[٢].

- أبو حيان: أي: فلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ولا يعرفون عنه؛ فإنه في تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره، ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه ولم يتأمله[٣].

- البقاعي: أي: يتأملون[٤].

- الشوكاني: أفلا يتفهمونه.

- ابن عاشور: يتأملون دلالته[٥].

وبهذا نعلم أن كلامهم يدور على إعمال الفكر والنظر بالتأمل والتفهم في آي القرآن الكريم للتوصل إلى معانيه ومقاصده، والله أعلم.

*** المحور الثاني: علاقة التدبر بالمصطلحات القرآنية الأخرى:**

(التفسير ، التأويل ، البيان ، الاستنباط ، الفهم)

أولاً: علاقته بالتفسير:

إن أصل مادة (التفسير) تدور على الكشف والبيان ، يقال: فسَّر الكلام، أي: أبان معناه وأظهره، فهو إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلي[٦].

---

(١) تفسر القرطبي (١٦/ ٢٤٦).

(٢) تفسير الخازن (٥/ ٤٢٧).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٠٧).

(٤) نظم الدرر (٢/ ٢٣٨).

(٥) ابن عاشور (٣/ ٤٨٣).

(٦) المقاييس (كتاب الفاء، باب الفاء والسين وما يثلثهما) (٢/ ٣٢٤)، الصحاح (مادة: فسر) (٢/ ٧٨١)، المصباح المنير (مادة: فسر) (ص١٨٠)، اللسان (مادة: فسر) (٢/ ١٠٩٥)، المفردات (مادة: فسر) (ص ٦٣٦).

وأما في الاصطلاح: فهو علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن العزيز من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[1].

وبناء على ذلك؛ يقال في العلاقة بين التفسير والتدبر: بأن بينهما ملازمة؛ وذلك أن التوصل إلى مراد الله تعالى من كلامه يحتاج إلى تدبر ونظر وتأمل، كما أن التدبر يتوقف على معرفة المعنى، والله أعلم.

ثانيًا: علاقته بالتأويل:

التأويل يأتي لمعنيين:

الأول: بمعنى التفسير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢]، وقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] على أحد الأوجه في التفسير؛ فتأويل القرآن بمعنى تفسيره، وهو المراد بقوله ﷺ في دعائه لابن عباس رضي الله عنهما: «وعلمه التأويل».

وهكذا تأويل الرؤيا يأتي بمعنى تفسيرها كما في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، وقوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف:٤٤]، وقوله: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقوله: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٤٥]؛ فهذا كله بمعنى تفسير الرؤيا.

الثاني: بمعنى ما يصير إليه الشيء في ثاني حال، فتأويل الخبر بوقوع المَخْبَر، ومن

(١) قواعد التفسير (١/ ٢٩).

obeikandi.com

ذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ ﴾ [يونس: ٣٩].

وهكذا يعبر بـ(التأويل) في الرؤيا بمعنى تحقق الوقوع ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، كما ورد بمعنى العاقبة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩، الإسراء: ٣٥]؛ في موضعين من القرآن.

وهكذا يُعبر بـ(التأويل) عن امتثال المأمور، ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم أغفر لي» يتأول القرآن.

بعد ذلك أقول بأن التأويل له تعلق بالتدبر باعتبار الإطلاقين السابقين، وبيان ذلك: أن تعلقه به من جهة إطلاقه مرادًا به التفسير لا يخفى؛ إذ القول فيه كالقول في التفسير.

وأما وجه تعلقه بالتأويل إذا أُريد به المعنى الآخر: فإن ذلك يكون بالامتثال والعمل والتطبيق، وذلك من المعاني الداخلة تحت التدبر، إضافة إلى التفكر في ما يؤول إليه الإنسان، وما يقع في الدنيا والآخرة مما وعد الله به أهل طاعته وأهل معصيته، والله أعلم.

ثالثًا: علاقة التدبر بالبيان:

البيان: من بان الشيء: إذا اتضح وانكشف.

هذا من حيث الجملة؛ ويتقيد معناه بحسب متعلقه.

والمقصود هنا: ما يتعلق بالتدبر؛ وذلك بإطلاق البيان على ما يشرح به المجمل

والمبهم، ويكشف به عن المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة:١٩]، قوله: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[١] [النحل:٤٤].

والقول فيه بهذا الاعتبار كالقول في التفسير من جهة الملازمة بينه وبين التدبر.

رابعًا: علاقة التدبر بالاستنباط:

ترجع مادة (الاستنباط) إلى الاستخراج[٢].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن العيون أو عن معارف القلوب؛ فهو له مستنبط»[٣] ا.هـ.

وبناء على ذلك؛ فإن الاستنباط من القرآن يكون بمعنى استخراج المعاني والأحكام وألوان الهدايات في العقائد والسلوك وغير ذلك، وهذا يكون نتيجة للتدبر كما لا يخفى، والله أعلم.

خامسًا: علاقة التدبر بالفهم:

الفهم: قيل: تصور المعنى من اللفظ، وقيل: هيئة للنفس يتحقق بها ما يحسن[٤].

وبناء على ذلك؛ فإن الفهم يكون نتيجة للتدبر، كما أنه يكون وسيلة لما وراء ذلك من المعاني الداخلة تحت التدبر، فإن من التدبر ما لا يتم إلا بعد الفهم، والله أعلم.

وبهذا نعلم أن بين التدبر والفهم ملازمة ولا يخفى أن الناس يتفاوتون في الفهم تفاوتًا كبيرًا، لكن كلٌّ يحصل له من التدبر بحسبه.

---

(١) المقاييس: (كتاب الباء، باب الياء وما يثلثها) (ص ١٦٤)، المفردات (مادة: بان) (ص ١٥٧).

(٢) السابق (كتاب النون، باب النون والباء وما يثلثها) (ص ١٠٠٧).

(٣) جامع البيان (٨/ ٥٧١).

(٤) القاموس (باب الميم، فصل الفاء) (ص ١٤٧٩)، المعجم الوسيط (مادة: فهمه) (٢/ ٧٠٤).

obeikandi.com

* المحور الثالث: أركان التدبر.

يقوم التدبر على أركان ثلاثة:

الأول: المُتَدَبِّر.

وهذا لابد فيه من تحقق شروط وانتفاء موانع، كما يلاحظ فيه توفر جملة من الآداب المكملة المعينة على التدبر ليكون المحل قابلاً.

الثاني: وهو الكلام المُتَدَبَّر:

ولا يخفى أن القرآن الكريم بالغ التأثير في النفوس، كما أنه ميسر للفهم، ولكن إذا وجد المحل القابل، لكن لا ننكر أن القرآن يشتمل على العقائد والأحكام والقصص والأمثال والكلام على الدنيا والآخرة، وأهوال القيامة، فقد تكون بعض هذه القضايا أكثر تأثير في بعض الناس، كما يكون غيرها أعمق تأثير لدى آخرين بحسب مقاصدهم وعمق أفهامهم ولطافة نظرهم.

الثالث: وهي عملية التدبر نفسها، وذلك يطلب فيه جملة أمور تتعلق بالقدر المتلو، وطريقة التلاوة، ووقتها وما إلى ذلك؛ ولذا قال النبي ﷺ: «لم يفقه مَن قرأ القرآن في أقل من ثلاث». رواه أبو داود والترمذي.

* المحور الرابع: أنواع تدبر القرآن:

النوع الأول: تدبره لمعرفة صدق من جاء به، وأنه حق من عند الله تعالى.

وذلك أن الله تعالى نعى على المنافقين إعراضهم عن طاعة الرسول ﷺ فقال:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨١-٨٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن شهادته أيضًا ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب والافتراء على رب العالمين والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك، وتدفعه الفطر والعقول السليمة كما تدفع الفطر التي فطر عليها الحيوان الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذى كالأبوال والأنتان؛ فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له والطمأنينة به والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه والريبة به وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه ولما سكنت إلا إليه ولا اطمأنت إلا به ولا أحبت غيره.

ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن؛ فإن كل مَن تدبره أوجب له تدبره علمًا ضروريًّا ويقينًا جازمًا أنه حق وصدق بل أحق كل حق وأصدق كل صدق، وأن الذي جاء به أصدق خلق الله وأبرهم وأكملهم علمًا وعملاً ومعرفةً كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، فلو رُفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان وعلمت علمًا ضروريًّا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية من الفرح والألم والحب والخوف أنه من عند الله تكلم به حقًّا وبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد، فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا!! فقال له: وكذلك الإيمان إذا

خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد.

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٩]، وقوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ ﴾ [الحج: ٥٤]، وقوله: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦]، وقوله: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد:١٩]، وقوله: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد:٢٧]، يعني أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية بل الله هو الذي يهدي ويُضِل، ثم نبههم على أعظم آية وأجلها وهي طمأنينة في قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [الرعد:٢٨]، أي بكتابه وكلامه: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، فطمأنينة القلوب الصحيحة والفطر السليمة به وسكونها إليه من أعظم الآيات، إذ يستحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل»[(١)].

وذلك يحصل لهم بتدبره من وجوه متعددة؛ منها:

١- اتساق معانيه[(٢)].

٢- ائتلاف أحكامه[(٣)].

٣- «تأييد بعضه بعضًا بالتصديق وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق فإن ذلك لو كان

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٧١).

(٢) ابن جرير (٨/ ٥٦٧).

(٣) ابن جرير (٨/ ٥٦٧).

من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض»[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أفلا يتدبرون القرآن فيتفكرون فيه، فيرون تصديق بعضه لبعض، وما فيه من المواعظ والذكر والأمر والنهي، وأن أحدًا من الخلائق لا يقدر عليه»[٢].

٤- صدق ما تضمنه من الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة.

ومن ذلك: كشف خبايا وخفايا المنافقين وإظهار ذلك، وهم يعلمون صدق ما أخبر به عنهم[٣].

٥- ما حواه من ألوان الأدلة والبراهين التي يخضع لها كل منصف مريد للحق متجرد من الهوى[٤].

٦- فصاحته وإعجازه للإنس والجن، عربهم وعجمهم، وهذه سمه لا تفارقه من أوله إلى آخره، فهو على كثرة سوره وآياته، وطول المدة التي نزل فيها لا تجد فيه تفاوتًا ولا خللاً في موضع واحد، وهذا لا يتأتى للبشر مهما بلغت فصاحتهم[٥].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن جرير (٨/ ٥٦٧)، وانظر أيضًا: البغوي (٢/ ٢٥٤)، ابن عطية (٢/ ١٦١)، الرازي (١٠/ ١٩٦)، الخازن (٢/ ١٣٧)، النيسابوري (٣/ ٣٦)، البقاعي (٢/ ٢٣٨)، الألوسي (٤/ ١٥٠)، ابن عاشور (١/ ٦٧) (٣/ ٤٨٣).

(٢) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٨٢)، زاد المسير (٢/ ٧٢)، الخازن (٢/ ١٣٧).

(٣) البغوي ٢/ ٢٥٤، الرازي ١٠/ ١٩٦، الخازن ٢/ ١٣٧، النيسابوري٣/ ٣٦، البقاعي ٢/ ٢٣٨، الألوسي ٤/ ١٥٠.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ١٦١.

(٥) الرازي ١٠/ ١٩٦، الخازن ٢/ ١٣٧، النيسابوري ٣/ ٣٦، البقاعي ٢/ ٢٣٨، الألوسي ٤/ ١٥٠، ابن عاشور (٣/ ٤٨٣)(٩/ ٣٨٥).

obeikandi.com

٧- ما اشتمل عليه من أنواع الهدايات التي تشهد لصحتها العقول -فيما للعقل مجال لإدراكه- وتوافق الفطر السليمة، فهو يدعو إلى كل معروف وخير، وينهى عن كل منكر وشر، فلا تجد فيه ما يجافي الحقيقة والفضيلة، أو يأمر بارتكاب الشر والفساد، أو يصرف عن الأخلاق الفاضلة[١].

النوع الثاني: تدبره للوقوف على عظاته، والاعتبار بما فيه من القصص والأخبار، وتعقل أمثاله المضروبة، وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ من أجل أن يرعوي العبد فيستدرك ما وقع له من تقصير، ويزداد من الإقبال والتشمير في طاعة الله تعالى[٢].

النوع الثالث: تدبره لاستخراج الأحكام منه، سواء كان ذلك مما يتصل بالعقائد، أو الأعمال المتعلقة بالجوارح، أو السلوك؛ إذ الأحكام تشمل ذلك كله بمفهومها الأوسع.

النوع الرابع: تدبره للوقوف على ما حواه من العلوم والأخبار والقصص، وما ورد فيه من أوصاف هذه الدار، وما بعدها من الجنة أو النار، وما وصف الله تعالى فيه من أهوال القيامة ونهاية الحياة الدنيا، وأوصاف المؤمنين والكافرين بطوائفهم، وصفات أهل النفاق، بالإضافة إلى الأوصاف المحبوبة لله تعالى، والأوصاف التي يكرهها... إلى غير ذلك مما يلتحق بهذا المعنى.

---

(١) ابن عاشور ١/ ٦٧.

(٢) ابن جرير ٢٢/ ١٧٩، الواحدي ١/ ٩١٢، القرطبي ١٦/ ٢٤٦، الألوسي ١٩/ ١٥٤، ابن عاشور ٣/ ٤٨٣.

openkandil.com

النوع الخامس: تدبره للوقوف على وجوه فصاحته وبلاغته وإعجازه، وصروف خطابه، واستخراج اللطائف اللغوية التي تستنبط من مضامين النص القرآني.

النوع السادس: تدبره للتعرف على ضروب المحاجة والجدال للمخالفين، وأساليب الدعوة للناس على اختلاف أحوالهم، وطرق التأثير على المخاطبين، وسُبل الإقناع التي تضمنها القرآن الكريم.

النوع السابع: تدبره من أجل الاستغناء به عن غيره سوى السنة فإنها شارحة له.

نقل ابن القيم عن الإمام البخاري قوله: «كان الصحابة إذا جلسوا يتذاكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم، ولم يكن بينهم رأي ولا قياس، ولم يكن الأمر بينهم كما هو في المتأخرين: قوم يقرؤون القرآن ولا يفهمونه، وآخرون يتفقهون في كلام غيرهم ويدرسونه، وآخرون يشتغلون في علوم أخرى وصنعة اصطلاحية، بل كان القرآن عندهم هو العلم الذي به يعتنون حفظًا وفهمًا وتفقهًا».

وقال ابن تيمية: وأما في باب فهم القرآن فهو -أي: قارئ القرآن- دائم التفكر والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحِكَمِه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن؛ فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده»[1] ا.هـ.

الثامن: تدبره من أجل تليين القلب به وترقيقه، وتحصيل الخشوع.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن

(١) التفسير الكبير ٦/ ٧١.

openkanari.com

﴿يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وأخبار النبي ﷺ في ذلك، وأخبار أصحابه مشهورة لا تخفى.

التاسع: تدبره من أجل الامتثال والعمل بما فيه من الأوامر، واجتناب النواهي.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في بيان المراد بقوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]، قال: «والذين نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله»[(١)].

وعن عكرمة: يتبعونه حق اتباعه باتباع الأمر والنهي، فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بما تضمنه[(٢)].

وقال الحسن: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تَدبُر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد

(١) ابن كثير ١/ ٤٠٣.

(٢) القرطبي ١/ ٩٢.

قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد -والله- أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خُلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَسٍ!! والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعَة متى كانت القراء مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس أمثالهم»[1].

وبهذا نعلم أن تدبر القرآن يتنوع بحسب تنوع مطالب المتدبرين، وقد قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعلوم أن كل مَن لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها وتفهمها وأدرك معانيها والعمل بها فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]» ا.هـ، وبذلك تعلم -أيضًا- ما يقع للناس من التفاوت العظيم في باب التدبر، فمن مقل ومكثر

ولكن تأخذه الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

وفي هذا المعنى يقول الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم مَن يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم مَن يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم مَن يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، وهذا كما

(١) الزهد ٢٧٦- تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦.

فهم ابن عباس من قوله: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف:١٥] مع قوله: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]؛ أن المرأة قد تلد لستة أشهر»[1] ا.هـ. والله أعلم.

وكتبه
د. خالد بن عثمان السبت
تخصص دراسات قرآنية
جامعة الملك فيصل

(١) إعلام الموقعين ١/ ٤٨٤.

obeikandl.com